



دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس . لبنان ص.ب ٥٧ هاتف : ٦٢١٩٥٩ ، ٦٢١٩٨٩

تلكس ٩٢٧٧٨ LE مصام

من سلسلة البؤساء

فانتين

تأليف الكاتب الفرنسي الكبير

فيكتور هيغو

أشرف على التعريب

ناصر عكاري

مراجعة وتصحيح

سيف الدين الخطيب

١ـ السَّيد مِيريَل

في العـام، ١٨١٥ كان السيد «شـارلْ فرنسـوا بيانفينـي ميريل»، وهو رجلٌ في الخامسةِ والسبعين من العمـر أُسقفاً لمدينة «ديني» منذ ١٨٠٦.

وصلَ المدينةَ مع أُخته «باتيستين» وهي عانسٌ أصغرُ منه بعشرِ سنينَ على الأقل، طويلةٌ نحيلةٌ ولطيفة، لم تعرفِ الجمالَ في حياتِها. عيناها الواسعتانِ تنظرانِ دائماً إلى الأسفل. وكانتْ خادمتُهما السيدة «ماغلوار» في نفسِ سنِّ الآنسة باتيستين، قصيرةَ القامة، بيضاءَ، بدينةٌ دائمةَ الحركة وتتنفّسُ بِصُعوبة.

لم تكنِ الأُسرُ تحتاجُ إلى استدعاء السيد ميريل لمريضٍ أوَ لُمحتضر، فلقد كان يأتي من تِلْقاء نفسـه. إنّـه يعـرفُ كيف يجلسُ ساكناً لساعاتٍ طويلةٍ قُربَ الرّجلِ الذي فَقَدَ زوجتَه الحبيبة أو الأمّ التي فقدتْ ولدَهـا. وكما كان يعـرفُ أوقـاتَ الصّمت، فقد كان يعرفُ كذلك أوقاتَ الكلام. كان يعلمُ أنَّ

الايمانَ شيءٌ حسن، ويُرشدُ الرّجلَ اليائسَ إلى النّجوم.

كان مقدمُه عيداً في أيِّ مكانٍ يظهرُ فيه، ووصولُه كافياً كيْ يحبّه الناس. كان يتحدّث إلى الصِّبيْة الصّغار والبنات الصّغيرات ويبتسم للأمّهات. كان يزور الفقراءَ طالما كان معه مال، وعندما ينفذُ منه كان يَقصدُ الأثرياءَ فيأخذُ منهم كلَّ ما يستطيعون منحَه. كان البعضُ يأتون كيْ يأخذوا ما تركَهُ الآخرون وكان الأسقف أباً لكلِّ التُّعساء، تمرُّ بين يديْه مبالغُ كبيرةٌ فيُعطي كلَّ شيءٍ قبلَ أنْ يأخذ مَثَلُهُ في ذلك مثلُ الماء على أرضٍ جافّة.

بقيَ للأسقف من كلِّ أموال أُسرته ستُّ سكاكين ومثلُها من الشُّوك والملاعق، فشَمْعدانان من الفضّة. كانتِ السيدة ماغلوار تتأمّلها طويلاً كلَّ يومٍ وهي تلمعُ فوقَ غطاءِ الطّاولة الأبيض. ولكي نُظهرَ أُسقفاً دينياً كما هو، يجبُ أنْ نُضيفَ أنّه كان يقولُ غالباً «سأشعرُ بالضّيق فيما لو توقّفتُ عنِ الأكلِ في آنيةٍ فضّية.» لم يكنْ للبيتِ بابٌ يُغلقُ بالمفتاح. وقديماً كان بابُ غرفةِ الطّعامِ الذي يُؤدّي إلى ساحةِ الكنيسة مُغلقاً لكنَّ الأسقفَ أمرَ بنزعِ القفلِ بحيثُ أصبح باستطاعةِ أوّلِ عابرِ سبيلٍ أنْ يدخلَ بعد دَفْعِ الباب.

مَسَاءُ يَوْمِ سَيْرٍ

قبلَ ساعةٍ من غروبِ أحدِ أوّل أيام شهرِ تشرين الأول دخلَ مسافرٌ راجلٌ إلى مدينة «ديني» الصغيرة. فتأمّله بانتباهٍ السكّانُ القليلونَ المُطِلّون من نوافذهم أو الواقفون أمامَ أبواب بيُوتهم. كان من الصّعبِ أنْ يلقى المرءُ عابرَ سبيلٍ أكثرَ بُؤساً منه، فلقد كان رجلاً قوياً، مربّعَ القامة، في السادسةِ أو الثامنةِ والأربعين من العمر، طويلَ اللّحية، ، تُخفي قُبّعته جُزءاً من وجهه الذي لوّحتْه الشّمسُ والرّيحُ والمطر. ومن خلالِ قميصهِ الخشنِ يتراءى شعرُ صدرِه الطّويل. أمّا ربطةُ عُنُقه فقد كانتْ أشبه بالحبل، وبنطالُه الأزرق مُهترئاً، أبيضَ عند إحدى ركبتيْه، ومثقوباً عند الأُخرى. كان قميصُه قديماً ومُهترئاً هو أيضاً وكان يُمسكُ بيده عصاً ثخينةً وقدماهُ ينتعلان فردتيْ حذاءٍ ضخمٍ دون جَوارب.

لم يكن يعرفهُ أحدٌ فهو ليسَ سوى عابرِ سبيل. من أينَ أتى؟ ربمًا من شاطىءِ البحر لأنّه دخلَ المدينةَ مِنَ الجنوب. كان يَبدو عليه التَّعبُ الشَّديدُ كمنْ سارَ طوالَ النَّهار. ولقد شاهدتْهُ نسوةٌ يتوقَّفُ تحتَ أشجارِ شارعِ «غاسندي» ويشرب. كان عطشاناً لأنَّه عاد فشربَ بعدَ مسيرةِ مِئتيْ خُطوة.

* * *



إنتباه!

في ذلك المساء، تأخَّر أُسقف «ديني» بالمكوثِ في غرفته، بعد جولتِه في المدينة. وعندَ السَّاعةِ الثامنة كان لا يزالُ يعملُ وعلى ركبتيْهِ كتابٌ كبير، عندما دخلتِ السيدة ماغلوار كالعادةِ كيْ تأخذَ الأوانيَ الفضيَّةَ من الخزانة المُجاورة للسَّرير.

وبعد برهةٍ، شعرَ الأُسقفُ أنَّ العشاءَ جاهزٌ وأنَّ أخته ربما كانتْ تنتظرُه فأغلقَ كتابَه ونهضَ من وراءِ طاولته ثم دخلَ غرفةَ الطَّعامِ التي كانتْ عبارةً عن غرفةٍ طويلةٍ لها بابٌ يُؤدِّي إلى الشَّارع ونافذةٌ تُطلُّ على الحديقة. كان هناك قنديلٌ موضوعٌ على الطَّاولةِ القريبةِ من الموقد حيثُ أُشعلتْ نارٌ متأجِّجة.

كانتِ المرأتان تتحدَّثان لحظةَ دخولِ الأسقف، إذ كانتِ السيدة ماغلوار خائفةً من باب الدُّخول الذي لا يمكنُ إغلاقُه، فلقد سمعتْ عندما ذهبتْ لشراء مُؤنِ العشاء أنَّ

رجلاً خَطِراً حلَّ بالمدينة ، وأنَّ صاحبَ النزْلِ رفضَ استقباله ، لذا فقد كان يجوبُ المدينةَ عندَ هبوطِ اللّيل ، وكان وجهُه مُرعباً. اكتفى الاسقفُ بالقول :

ــ حقاً؟

فتابعتِ السيدةَ ماغلوار كما لو لم تسمع :

ــ هذا البيتُ ليس آمناً ، فالبابُ لا يُغلق ، وسيِّدُنا قدِ اعتادَ على أنْ يقول : «أدخل» حتى مُنتصف الليل.

قُرع البابُ في هذه اللَّحظة بقوّة، فقال الأسقفُ :

ــ أدخل.

* * *

الطَّاعَة

فُتحَ البابُ على مصراعيْه، مدفوعاً بقوّةٍ ودخلَ رجلٌ الغرفة : إنّه المسافرُ الذي شاهدْنا وصولَه إلى «ديني» منذُ قليل. دخلَ وتقدَّمَ خُطوةً ثم توقّفَ تاركاً البابَ مفتوحاً خلفَه. كان يتنكّبُ كيسَه ويُمسكُ عصاهُ بيده ، ويبدو عليه التّعبُ والتّصميمُ في آنٍ واحدٍ وقَدِ انعكسَ على وجهه ضوءُ النّار.

لم تقوَ السيدة ماغلوار على الصّياح ، فبقتْ فاغرةَ الفم . أمّا الآنسة باتيستين فَقَدِ استدارتْ ولمّا رأت الرَّجلَ يدخلُ همَّتْ بالنُّهوضِ ثم نظرتْ إلى أخيها فعادَ الهدوءُ إلى محيّاها.

نظرَ الأسقفُ إلى الرَّجلِ بعينٍ مُطمئنة ،وفتحَ فمَه كي يسألَ الرَّجلَ عمّا يُريده. وفي نفسِ اللّحظةِ وضعَ ذلك الرجلُ يديْه الاثنتيْن على عصاه ونقلَ بصرَه بين الرجلِ العجوزِ والسيّدتين ثم قال بصوتٍ قوي : «إنّني أُدعى جان فالجان ولقد قضيتُ

تسعَ عشرةَ سنةً في السّجن. أُطلقَ سراحي منذُ أربعةِ أيام وأنا أقصدُ «بونتارليه». لقد سرتُ اليومَ ستَّة وثلاثينَ كيلـو متراً، وعند وصولي مساءً إلى هذا البلد، ذهبتُ إلى نَزْلٍ فطُردتُ، ذهبـتُ إلى نَزْلٍ آخـر فَقِيل لي: «إرحـل». لم يشـأْ أحـدٌ إستقبالي، وذهبتُ إلى السّجن فلم يَفتح لي. أردتُ النَّومَ على فراش قشٍّ لأحدِ الكلاب فعضّني وطردني كما لو كان إنساناً يعرفُ مَنْ أنا. ذهبتُ إلى الحقـولِ فلـم تكن هنـاك نجـوم. وفكَّرتُ أنَّ السماءَ قد تُمطـر وأنّـه لن يكون هنـاك ربٌّ طيِّب يمنعُها من ذلك. عدتُ إلى البلدةِ كيْ أنام أمامَ أحدِ الأبوابِ فدلَّتني امرأةٌ طيِّبةٌ على دارك وقالتْ لي: «إقرعِ البابَ هناك» ففعلتُ. فما الذي هنا؟ هل هذا نزل؟ لديّ مال، مئةٌ وتسعةُ فرنكاتٍ كسبتُها من عملي في السِّجن طوالَ تسعةَ عشرَ عاماً. وسأدفعُ فلنْ يُضيرني ذلك. إنّي تعبٌ جداً وجائعٌ فهل تُريدون أنْ أبقى؟»

قال الأسقف:

ـ يا سيدة ماغلوار، أَضيفي صحناً آخر.

تقدَّمَ الرجلُ ثلاثَ خُطواتٍ نحوَ المصباحِ الموضوعِ على

الطَّاولةِ وأجابَ كمنْ لم يفهم:

ـ ليسَ الأمرُ هكذا. هل سمعتُم؟ إنَّني سجينٌ قديمٌ خارجٌ من السّجن.

ثم أخرجَ من جيبه ورقةً وقال:

ـ هذا جوازُ سفري وعليَّ أنْ أُبرزه في كلِّ بلديّات المدن التي أَتوقَّف فيها. إنَّه يُستعمل لطردي من كلِّ مكانٍ أذهبُ إليه. هل تُريدون قراءَته؟ هاكُم ما هو مكتوبٌ فيه: «جان فالجان وُلِدَ في.. بقيَ مسجوناً تسعةَ عشرَ عاماً. خمسةَ أعوامٍ بسبب السّرِقة، وأربعة عشرَ عاماً لمحاولته الهربَ أربعَ مرَّات. هذا الرَّجلُ خَطِرٌ جداً. لقد ألقى بيَ الجميعُ خارجاً فهل تُريدون أنتم استقبالي؟ هل هذا نزل؟ هل تريدون أنْ تُقدِّموا لي ما آكلهُ وما أنامُ عليه؟

قال الأسقف:

ـ ضعي يا سيدة ماغلوار شراشفَ بيضاءَ على سرير غُرفة الضّيوف

ثمَّ استدارَ نحوَ القادمِ ووجَّه إليه الكلام:

ـ إجلسْ يا سيدي وتدَّفأ، فستتعشّى بعدَ قليل. وفي هذه الأثناء، سيرُتَّبُ سريرُك. كان بِوسعك ألاَّ تقولَ لي مَنْ أنتَ. . فهذه الدَّارُ ليستْ داري، إنهَّا دارُ الخالقِ عزَّ وجلَّ. وهذا البابُ لا يسألُ الدَّاخلَ عن اسمِه لكنْ عن مصيبتِه. إنَّك متألّمٌ، وجائعٌ وعطشان. فأهلاً وسهلاً بك. لا تشكُرني ولا تقلْ لي إنّي أستقبلُك في داري. إنّي أقولُ لكَ أنتَ عابرُ السَّبيل: إنَّك في دارِك أكثرَ منّي أنا. فما حاجتي لمعرفةِ اسمك؟ ومن جهةٍ أُخرى فلكَ اسمٌ كنتُ أعرفهُ قبلاً.

ـ هل هذا صحيح؟ أَو كنتَ تعرفُ إسمي؟

ـ أجلْ، إنَّك تُدعى أخي.

وبينما كانا يتحادثان، قدَّمتِ السيدةُ ماغلوار الحساءَ المُعدّ من الماءِ والزَّيتِ والخبزِ والملحِ بالإضافةِ إلى قطعةٍ من لحمِ الغنمِ وشيءٍ من الجبنِ الطَّازجِ والفواكهِ وقطعةٍ من الخبزِ الأسود. وزادتْ على ذلك كله، من تلقاء نفسها، زجاجةً من النَّبيذ المعتَّق ، فانفرجتْ أساريرُ الأسقفِ فجأةً وقال: «إلى المائدة». وكعادتِه مع رجلٍ غريبٍ، أَجلسَ الرجلَ إلى يمينه، واتخذتِ الآنسةُ باتيتسين مكانَها إلى يساره. تلا الأُسقفُ صلاةً

قصيرةً ثم صبَّ الحِساءَ بنفسه ككلِّ يومٍ فبدأَ الرَّجلُ بالأكل.

صاحَ الأُسقفُ فجأةً:

«يبدو لي أَنَّ هذه المائدةَ ينقُصها شيءٌ ما!»

فَفَهمتِ السيدةُ ماغلوار وأَحضرتِ السّكاكينَ والشُّوكَ والملاعقَ الفضّيَةَ مع الشَّمعدانين ووضعتْها أمامَ الثَّلاثة.

* * *



الرَّجُلُ ينامُ بملابسِه

تمنّى الأُسقفُ ميريل مساءً سعيداً لأُخته، ثمَّ تناولَ من على المائدةِ أحدَ الشّمعدانين الفضيّين وناولَ الآخرَ للضيفِ قائلاً: «سوفَ أَقودُكَ يا سيدي إلى غرفتك.» فَتبِعَهُ، وفي لحظةِ عبورِهما لغرفةِ الأسقف، كانتِ السيدةُ ماغلوار ترتّبُ الفضيّاتِ في الخزانةِ المُجاورةِ للسرير، وهو آخرُ عملٍ تقومُ به كلَّ مساء، قبلَ الذّهابِ للنّوم.

أدخلَ الأُسقفُ الرَّجلَ ووضعَ الشّمعدانين على طاولةٍ صغيرة. كان هناك سريرٌ أبيضُ نظيفٌ بالإنتظار، فقال المُضيف:

ــ ليلةً طيّبة. وغداً صباحاً، قبلَ رحيلِكَ، ستشربُ كوباً من الحليبِ السّاخن.

أجابَ الرجل:

ــ شُكراً يا سيدي.

وفجأةً اعتملَ شيءٌ في داخِله فاستدارَ نَحو الأُسقفِ ونظرَ إليه بحقدٍ ثم قال بصوتٍ قاسٍ:

ــ أتجرؤُ حقاً على إيوائي هكذا في دارك، وبقُربك؟

ثم ضَحك وأضاف:

ــ هل فكَّرت بما تفعلُه؟ مَنْ يَقُلْ لكَ إنّي لم أقتُل، وإنّي لن أُعيدَ الكرَّة؟

أجابَ الأُسقفُ بهدوء:

ــ هــذا يتعلَّقُ باللّه سُبْحانَه وتعالى.

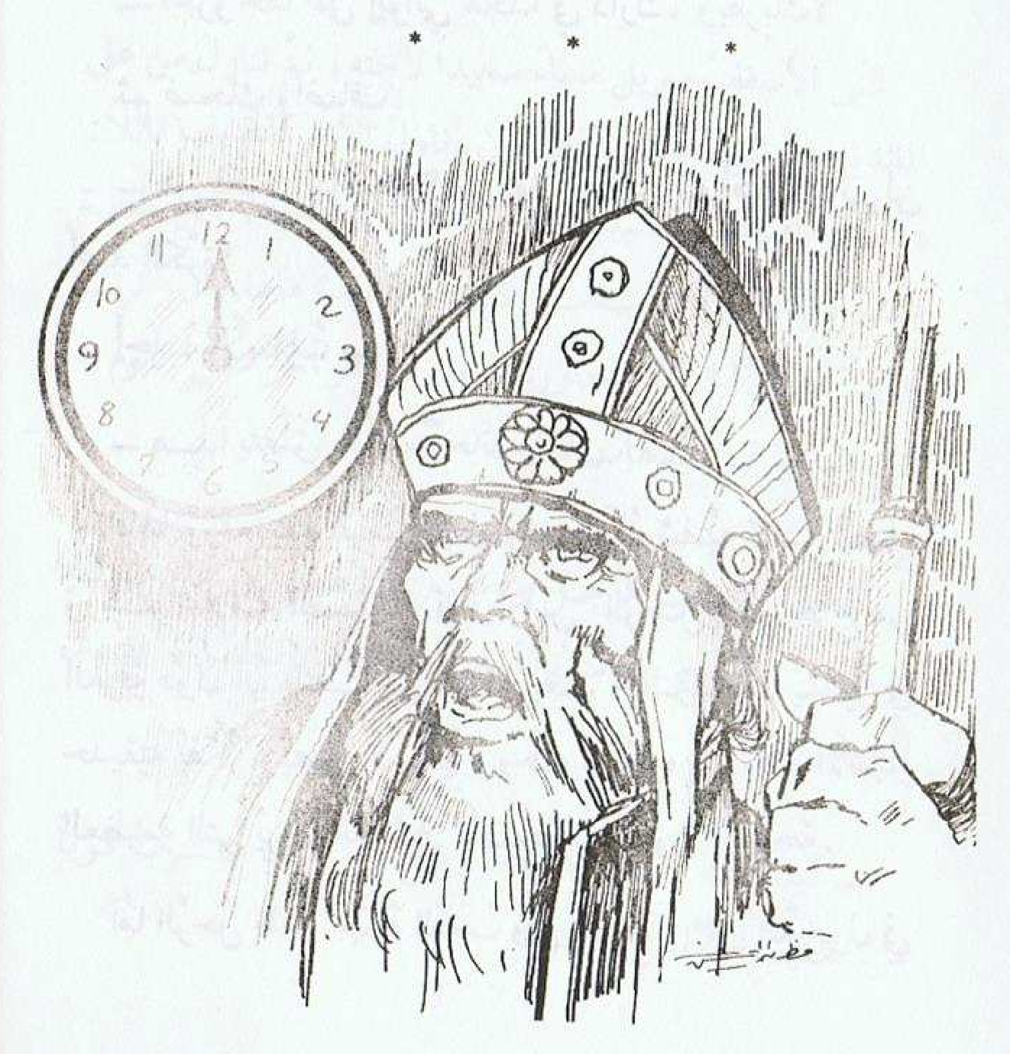
قالَها ورفعَ يدَه اليُمنى ببطءٍ وهو يحرِّكُ شفتيْه كمن يُصلّي ورسمَ علامةَ الصَّليبِ فوقَ رأسِ الرَّجل، ثم خرجَ من الغرفةِ دونَ أنْ يلتفتَ إلى الوراء. بعدَ لحظةٍ، كان يسيرُ في حديقتِه يُفكّرُ ويُصلّي مُسلِّماً روحَه وفكرَه إلى تلكَ الأشياءِ العظيمةِ التي يُريهَا اللّهُ ليلاً لأصحابِ العيونِ المفتوحة.

أمَّا الرَّجلُ فلقد أنهكَهُ التَّعبُ ولم يقوَ حتى على الدُّخولِ في

الشراشفِ البيضاء، فأطفأَ النُّورَ وارتمى بملابسِهِ على السرير حيثُ راحَ فوراً في سُباتٍ عميق.

دقَّتِ السَّاعةُ مُعلنةً مُنتصفَ اللّيلِ عندما عادَ الأسقفُ مِنَ الحديقةِ إلى غُرفته. وبعدَ دقائقَ كان كلُّ شيءٍ قد نامَ في البيتِ الصغير.

* * *



مَنْ هوَ جَان ڤالجَان؟

فَقَدَ جان فالجان والديْهِ في مُقتبلِ عُمرِه إذْ ماتتْ أُمُّهُ من حُمَّى أُسيئتْ مُعالجتُها، وقُتلَ والدُه إثر سُقوطِه من إحدى الأشجار، لم يبقَ له سوى أختٍ أكبرُ منه سناً مع أولادها فتولَّتْ تربيتَه. وعندَ موتِ زوجِها حلَّ جان فالجان محلَّه وهو في الرَّابعةِ والعشرين، بينما كان عمرُ أولادِ أُخته يتراوحُ بين الثمان سنين والسّنة الواحدة.

كسبَ جان فالجان بعضَ المالِ من قَطْعِ الأشجارِ ومن الحصادِ، وكانتْ أخته تعملُ من جهتها، ولكنْ ما العَمل والأطفالُ سبعة؟

حلّتْ بهمُ المصائبُ في شتاءٍ أشدَّ قسوةً من غيره، فَفقدَ جان عملَه وبقيتِ الأُسرةُ بأطفالها السَّبعة دون خبز.

وفي مساءِ يومِ أحدٍ ذهبَ «مويار إيزابو»، وهو خبّازٌ في

ساحةِ بلدة «فافرول»، كيْ ينامَ فَسمِعَ صوتَ ضربةٍ أصابتْ زُجاجَ مخبزِهِ ووصلَ في الوقتِ المناسبِ لِيرى ذراعاً تمتدُّ من خلال الفجوةِ التي أحدثتْها الضربة. تناولتِ اليدُ قطعةَ خُبزٍ وحملتْها فخرجَ إيزابو مُسرعاً وأوْقفَ السّارقَ الذي ألقى قطعةَ الخبزِ وذراعه تنزفُ دماً. إنّه جان فالجان.

حدث ذلك سنة ١٧٩٥، فَحُكِمَ على جان فالجان بالسّجنِ لخمسِ سنوات. وفي ٢٢ نيسان سنة ١٧٩٦، تألّفتْ قافلةٌ كبيرةٌ من المساجين كان جان فالجان أحد أعضائها، فجلسَ أرضاً كالآخرين دون أنْ يبدو عليه أنّه يفهمُ ما يحدث. وبينما كانتِ السّلسلةُ الحديديّةُ تربطُ في عنقه بضرباتِ مِطرقةٍ قويّة، كان يبكي مُردِّداً: «أنا عاملٌ من «فافرول». رُحِّلَ «جان فالجان إلى «طولون» فبلغها بعد سفرِ سبعة وعشرينَ يوماً مغلولَ العُنق: وهناكَ أُلبسَ سترةً حمراء، فأمحت كلُّ حياتِه بما فيها اسمُه إذ لم يعدْ يُدعى جان فالجان بل الرقم ٢٤٦٠١. فما الذي آلَ إليه مصيرُ أُختِه وأولادِها السَّبعة؟

* * *

ما الذي حدثَ في نفسِ السَّجين؟

بدأ جان فالجان بالحُكمِ على نفسِه، فقطعةُ الخبزِ التي سرقها كان بوُسعهِ أنْ يطلبَها أو أنْ ينتظر، لأنَّ المرءَ يستطيعُ أنْ يتألَّمَ كثيراً ولفترةٍ طويلةٍ دون أنْ يموت، لكن من النّادرِ أنْ يقضيَ جُوعاً. لقد أخطأَ وهو يعترفُ بخطئه.

ثمَّ تساءلَ هل كان هو المُخطىءُ الوحيدُ في تلكَ القصّة المُحزنة؟ ألَيسَ أمراً سيّئاً أنْ يكونَ هو العاملُ عاطلاً عن العمل ودون خبز؟ وبعد الخطأ، ألَمْ يكُنِ العقابُ أقسى ممّا ينبغي؟ اعتقدَ جان فالجان أنَّ هذه الحياةَ هي حربٌ قد خَسرهَا. ومِنَ المُحزِنِ أنْ يُقالَ إنّه بعدَ أنْ حاكمَ النّاسَ الذين تسبّبوا بمصيبتِه، حاكمَ مَنْ خلقهُم فأدانَهُ أيضاً. يجدرُ ألاّ ننسى أنْ نذكرَ أيضاً أنّه كان أقوى السُّجناء، يستطيعُ رفعَ وحملَ أوزانٍ كبيرة. لذا دعاهُ رفاقُه فيما بينهم «الرّافعة».

كان فالجان ماهراً بقدر ما كان قوياً، وكان الإنتقالُ من طابقٍ لآخر لعبةً بالنِّسبة له، ولم يكنْ يحتاجُ للصعُودِ إلاَّ إلى زاويةِ جدارٍ ثمَّ إلى يديْه وقدميْه ومرفقيْه وركبتيْه.

وعند خُروجه من السِّجنِ لم يعدْ جان فالجان ذلك الشابُّ الباكي، فلقد أصبحَ باستطاعتِه أنْ يفعلَ الشرَّ لمجرَّدِ الشُّعورِ بلذَّةِ ردِّ الشرّ الذي لقيَه. وكان باستطاعتِه على الأقلِّ أنْ يفعله بدافعِ كراهيَّته لكلِّ قانونٍ ولكلِّ كائنٍ حيٍّ بمنْ فيهم الطَّيِّبين والصَّالحين. حقاً إنَّ جان فالجان كان رجلاً شديدَ الخُطورة.

* * *

الغُفْران

عندَ شروقِ شمسِ اليومِ التَّالي كانَ الأسقفُ ميريل يَتنزَّهُ في حديقتِهِ عندما هرعتْ إليه السيدةُ ماغلوار صائحةً:

ـ يا سيّدنا، يا سيّدنا، هل تعرفُ أينَ هي سلَّةُ الفضيَّات؟.

ـ نعم.

ـ الحمدُ لِلّهِ، لم أكُن أعرفُ ما الذي آلتْ إليه.

كان الأسقفُ قد التقط السلَّةَ من بين الأعشاب، فناوَلها للسيدة ماغلوار قائلاً:

ـ ها هيَ، خُذيها.

ـ ولكنْ لا شيءَ فيها. والفضيَّات؟

ـ آه، إذنْ فالفضيَّاتُ هي ما يُشغلُ بالَك. إنَّني لا أعرفُ أينَ هي.

ـ يا إلهي، لقد سرُقتْ! ورجلُ البارحةِ هو الذي سرَقهَا.

صمتَ الأسقفُ برهةً ثمَّ قال للسيدةِ ماغلوار بلطف:

ـ قبلَ كلِّ شيء، هل كانتْ هذه الفضيَّاتُ لنا؟

لم تُحرِ السيدةُ ماغلوار جواباً وبعدَ فترةٍ من الصَّمتِ تابعَ الأسقفُ حديثَه:

ـ يا سيدة ماغلوار، لقد كنتُ أملكُ هذه الفضيَّاتِ منذُ وقتٍ طويلٍ، فكانَ مِنَ الضَّروريِّ أنْ تذهبَ للفقراء. وكان هذا الرَّجلُ فقيراً بالتَّأكيد.

في هذه اللَّحظةِ قُرِعَ البابُ فقالَ الأسقفُ.

ـ أُدخل.

فُتحَ البابُ وظهرتْ مجموعةٌ من ثلاثةِ رجال يُمسكونَ رابعاً. كان الثَّلاثة من الدَّرك أمَّا الآخر فقد كان جان فالجان.

تقدَّمَ منهم السيد ميريل بالسّرعة التي يسمحُ له بها سنُّه وصاحَ وهو ينظرُ إلى جان فالجان.

ـ آه أهذا أنت؟! إنَّني جدُّ مسرورٍ برُؤيتِكَ ثانيةً. إنَّني أُريدُ أنْ أَهبَكَ أيضاً الشَّمعدانين اللّذين هما من فضَّةٍ كالباقي وثمنُهما أيضاً مئتا فرنك، فَلِمَ لَمْ تأخُذْهما مَعَ الملاعقِ والشَّوك؟

نظرَ جان فالجان إلى الأسقف دونَ أنْ يفهم، فقال رئيسُ الدَّرك:

ـ إذنْ فما قالـه هذا الرَّجـلُ صحيح؟ كان ماراً فأوقفناهُ وكانتْ في حوزته هذه الفضيَّات.

ـ وقال لكم إنَّ كاهناً عجوزاً قد أعطاها له في دارٍ قضى فيها اللّيل؟ وأعدتُموه إلى هنا! لقد أخطأتُم.

ـ أتستطيعُ إذنْ إطلاقَ سرَاحِه؟

ـ بدون شك.

ترَكَ الدركيُّونَ جان فالجان فتراجعَ وهو يقولُ بصوتٍ مكتومٍ كما لو كان يتحدَّثُ في نومه.

ـ أصحيحٌ أنَّهم قد تركوني؟

فأجابه رئيسُ الدَّرك:

– نعمْ، لقد أُخلي سبيلُكَ، ألاَ تسمع؟

إستأنفَ الأسقفُ حديثَه:

– هاكَ شمعدانيْك يا صديقي خُذْهما قبلَ أنْ تذهب.

ثم حملَهُما بنفسه إلى جان فالجان، فتناولَهُما هذا دون أنْ يبدو عليه فَهْم ما يحدُث له، وهو يترنَّحُ كما لو كان على وَشْكِ السُّقوط. إقتربَ الأسقفُ منه وقال بصوتٍ خافت.

– إذهبِ الآن بسلام، لكنْ لا تنسَ أبداً أنَّ عليك أنْ تستخدمَ هذا المال كي تُصبحَ رجلاً صالحاً.

* * *



أُمٌّ تلتقي بأُخرى

بين عاميْ ١٨٠٠ و ١٨٣٢ كان يوجدُ في «مونغرماي» قُربَ باريس شبهُ نَزْلٍ يُديرُه زوجان يحملانِ إسْمَ «تيناردييه»

وفي إحدى أُمْسيات ربيع ١٨١٨ كانتْ عَرَبَةٌ صُنِعتْ لجرِّ الاشجار متوقِّفةً أمامَ ذلكَ النَّزل، وكانتْ تتدلَّى من مُؤخَّرتها سلاسلُ جلستْ على إحداها بِنتان صغيرتان، إحداهُما وعمرُها سنتان ونصفُ السّنة تضمُّ بين ذراعيْها الثَّانيةَ وعمرُها ثمانيةَ عشرَ شهراً. كان هناكَ منديلٌ معقودٌ بمهارةٍ كَيْ يحولَ بينهُما وبين السُّقوط. كانتِ الأُمُّ قد رأتْ تلكَ السِّلسلةَ فقالتْ «هذه لعبةٌ لولدي!»

كانتِ السَّعادةُ ظاهرةً على البنتينِ الحسنتيْ الملبس، فعيناهُما تلمعان ووجنتاهُما النَّضرتان تضحكان، كانتْ إحداهُما أشدَّ سُمرةً مِنَ الأُخرى وكانَ وجهاهُما مرحينْ وابنةُ

الثمانية عشرَ شهراً مكشوفَةَ البطن. على بُعْدِ خُطواتٍ جلستِ الأُمُّ في مدخلِ النزلِ تَشدُّ السِّلسلةَ بحبل. كانتِ البنتانِ تَضحكانِ تحتَ أشعَّةِ الشَّمسِ المائلةِ إلى المغيب.

كانتِ الأُمُّ تُغنّي وهي تشدُّ الحبل فلم تنتبه الى امرأةٍ تقتربُ منها وتقول: «لديكِ ابنتانِ جميلتانِ يا سيدتي!»

كانتِ القادمةُ تحملُ طفلاً بينَ ذراعيْها، بالإضافةِ إلى كيسٍ كبيرٍ يبدو ثقيلاً. وكانَ الطِّفلُ بنتاً في غايةِ الجمال، في الثَّانية أو الثَّالثةِ مِنَ العمر، حسنةَ الملبس، ناعمةَ الثِّياب، ذات ساقٍ بيضاءَ قويّةٍ تظهرُ من ثنْيَة تنُّورَتها، ورديَّةَ اللَّون، تُفاحيَّةَ الوجنتين، غارقة في نومٍ عميق كما ينامُ الطِّفلُ بين ذراعيْ أمّه.

أمّا الأُمُّ فكانتْ تبدو فقيرةً وحزينةً كعاملةٍ عادتْ وتحوَّلتْ إلى فلاَّحة. إنَّها صبيَّةٌ فقدتْ مِسحةَ جمالِها السَّابق. يختفي شعرُها الأشقرُ الكثيفُ تحتَ منديلٍ بشِعٍ عُقِدَ تحتَ ذَقْنِها، دامعةَ العينينِ باستمرار، يبدو عليها الإعياءُ والمرضُ وتحضُنُ ابنتَها الرَّاقدةَ بينْ ذراعيْها بنظراتِ الحبّ. يداها سمراوان قسا على أصابعِها العملُ والإبرة. ثوبُها مِنَ القماشِ

الرَّخيص ونعلاَها غليظان. كانتْ تلكَ المرأةُ تُدعى «فانتين».

رفعتِ الأمُّ رأسَها وشكرتْ عابرةَ السَّبيل وأجلستْها على المقعدِ المُجاورِ للباب وَشَرَعتا تتحدَّثان. قالتْ والدةُ الطِّفلتَين:

ـ إنَّني أُدعى السيدة تيناردييه، ونحنُ نديرُ هذا النزْل.

كانتِ السيدة تيناردييه تلك نحيلةً كهيكلٍ عظميٍّ رغمَ أنَّها لا تزالُ صبيَّةً في الثلاثين من العمر. وعندما تقفُ كانتْ تُثيرُ الخوفَ بكتفيْها الشَّبيهيْنِ بِكَتِفَيْ الرِّجال وبمظهرِها القاسي. لكنَّ عابرةَ السَّبيلِ رأتْها وهي جالسة. وَرُؤيةُ شخصٍ جالسٍ بدلاً من رُؤيته واقفاً كفيلةٌ بتغييرِ مجرى حياةٍ بأسرها.

سردت المسافرةُ قصّتَها: إنَّها عاملةٌ مات زوجُها، وكان العملُ قليلاً في باريس فغادرتْها في ذلك الصّباحِ وهي تحملُ ابنتَها وشعرتْ بالتَّعب.

تابعتِ المرأتان الحديثَ، فسألتِ الأُولى:

ـ ما اسمُ ابنتِكِ؟

ـ كوزيت.

ـ وما عمرُها؟

ـ ستبلغ الثَّالثة.

ـ إنَّها كابنتي الأُولى.

في هذه الأثناء تجمّعت البنـاتُ الثّلاث وشاهدن حيواناً صغيراً يخرجُ من الأرض أثارَ اهتمامهنَّ وأخافهنَّ في آنٍ واحد، فتقاربـتْ جباههُنَّ السَّعيدة.. وعندهـا صاحـت السيدة تيناردييه: «إنَّ الأطفال سرعـانَ ما يتعارفـون وهؤلاء يبـدون كثلاثِ أَخَواتٍ!»

أمسكت القادمةُ الجديدةُ يدَ السيدةِ تيناردييه وقالتْ لها وهي تنظرُ في عينيْها: أنت ترينَ أنِّي لا أستطيعُ اصطحابَ ابنتيْ الى قريتي لأنَّ عملي لا يسمحُ لي بذلك، فهل تُريدين أنْ تحتفظي لي بطفلتي؟

ـ لا أدري.

ـ سأعطيكِ ستَّةَ فرنكاتٍ كُلَّ شهر.

عندئذٍ ارتفعَ صوتُ رجلٍ داخلِ النزْل:

ـ لا أقلَّ من سبعةِ فرنكات، وستَّةُ اشهرٍ تُدفعُ مُقدَّماً.

ـ سأدفعها. لديَّ ثمانون فرنكاً وسيبقى لديَّ ما أذهبُ به

إلى قريتي سيراً على الأقدام. وهناك سأكسبُ مالاً وعندما يتوفَّر لي بعضُه. سأعودُ لآخذَ الصَّغيرة.

تَمَّتِ الصَّفقةُ فأمضتِ الأُمُّ ليلتهَا في النزْل وأعطتْ نقودَهَا تاركةً الطّفلة.

قال الرَّجلُ للمرأةِ بعد رحيلِ والدة كوزيت:

ـ سيُساعدني هذا على أنْ أدفعَ غداً المئة وعشرةَ فرنكات التي أنا مَدينٌ بها، والتي كنتُ بحاجةٍ إلى خمسين منها، فلولاكِ ولولا الصغيرتان لَذَهبتُ إلى السّجن. حقاً إنّكِ ماهرة.»

* * *



وَجهَان قَبيحَان

لكنْ من هُما الزَّوجان تيناردِيه؟ إنهَّما ليسا عامليْن جيّدَيْن ولا انسانيْن ذكيَّين، ومثلُهما لا تُوحي أعمالُهما السَّابقةُ والحاليَّةُ بالثِّقة.

يقولُ الزَّوجُ تيناردِيه إنَّه كان جُندياً خاضَ الحربَ سنة ١٨١٥ وأنقذَ ضابطَه من موتٍ محُقَّق. أمَّا السيدةُ تيناردييه فهي تُطالع قصصَ حبٍّ سخيفةٍ وقد أطلقتْ على ابنتيْها إسمىْ: «أربونين» و «أزيلما».

لم يكن نزلهُما يعرفُ الرَّواجَ، وفي الشهر التَّالي حملتِ المرأةُ ملابسَ كوزيت إلى باريس حيثُ باعتْها بستّين فرنكاً ثم ألبست الطِّفلةَ التي لم يعدْ لديها ملابسٌ داخليَّة أو غيرُها، ملابسَ صغيرتيْها القديمة. وكانتِ تُقدِّمُ لها بقايا الطَّعام تتقوَّتُ بها، بشكلٍ أفضل قليلاً من الكلب وأسوأ من الهر.

وكما سنرى فيما بعد، فلقد عثرتِ الأمُّ على عملٍ في «مونتراي سيرمار» وكتبتْ أو بالأحرى استْكتبتْ كلَّ شهر تتسقَّطُ أخبارَ طفلتَها، وكان الزَّوجانِ يجُيبان في كلٍّ مرّةٍ: «كوزيت بخير».

بعدَ انقضاءِ الأشهر السّتة، أرسلتِ الأمُّ سبعة فرنكات عن الشهر السابع واستمرَّتْ تُرسلها شهرياً. ولم تكدِ السَّنةُ تمضي حتى قال السيد تيناردِيه: «إنَّ السبعةَ فرنكاتٍ لا تكفينا»، وطلبَ عشرة. ولما كانتِ الأمُّ تظنُّ ابنتهَا سعيدةً فلقد أرْسلتهَا.

إنَّ بعضَ النِّساءِ لا يستطعْنَ أنْ يحُببنَ من جهةٍ دون أنْ يكرهنَ من جهةٍ أُخر، لذا كانتِ الأمُّ تيناردِيه تحُبُّ ابنتيْها وتكرهُ الغريبة، وهو ما يمُكنُ أنْ يقودَ إليه حبُّ الأم. كانتْ كوزيت تشغلُ حيّزاً صغيراً ورغمَ ذلك فقد وجدتِ السيدةُ تيناردِيه أنَّ ذلك الحيّز قد أُخذَ من ابنتيْها؛ فلم تكن كوزيت تأتي بحركةٍ دون أن تُضرب.

وكما كانتِ الأمُّ تيناردِيه» شرّيرةً بالنِّسبةِ لكوزيت كذلك كانتِ ابنتاها ايبونين وأزيلما، فالأطفالُ في هذه السنّ المبكّرة يسيرون على خُطى أهلهم لكنْ ضمنَ نطاقٍ أضيق.

مرّتْ سنةٌ تلتْها أُخرى، وكان يُقال في القرية: «إنَّ آل تيناردييه أُناسٌ طيِّبون فهم، رغمَ أنهَّم ليسوا أغنياء، يُربُّون طفلةً مسكينةً في دارهم». وكان النَّاسُ يعتقدونَ أنَّ أمّ كوزيت قد نسيتْ إبنتهَا تماماً.

أصبحتِ الطِّفلةُ بالتَّدريج خادمةَ النزل، فكانت مُكلَّفةً بكنسِ الغرفِ والفناءِ والشّارعِ وبغسلِ الصّحونِ وحملِ الرِّزم. أمّا الأمُّ التي استقرَّتْ في «مونتراي سيرمار»، فقد بدأتْ تدفعُ بشكلٍ غيرِ مُنتظم. وهكذا تحوَّلتْ كوزيت من طفلةٍ جميلةٍ نضرة إلى ابنةٍ نحيلةٍ شاحبةٍ يبدو عليها الخوفُ باستمرار.

* * *



السَّيِّد مادلين

ما الذي آلتْ إليه حالُ تلكَ الأُمّ التي كان سكّانُ مونغارماي يعتقدون أنّها قد نسيتْ طفلتَها؟ وما الذي كانتْ تفعلُه؟

بعد أنْ نزلتْ صغيرتُها كوزيت عند آلِ تيناردييه تابعتْ طريقَهَا فوصلتْ إلى «مونتراي سيرمار» وهي مدينةٌ طرأ عليها كثيرٌ من التَّغيُّرات منذُ عشرِ سنين. فلقد حلَّ فيها حوالي أواخرِ العام ١٨١٥ رجلٌ مجهولٌ أثرى في أقلّ من ثلاث سنين وأثرى معه الجميع. وبفضلِهِ أصبحتْ مونتراي مدينةَ أعمالٍ امتدّتْ تجارتُها حتى لندن ومدريد وبرلين. كان الأبُ مادلين يكسبُ مالاً وفيراً، مكّنه من أنْ يبنيَ مصنعاً في السنةِ الثانية. وكان بإمكان الجائعين أنْ يقصدُوه لِثقتهم أنّهم واجدون فيه عملاً.

لم يكنْ أحدٌ يعرفُ شيئاً عن ماضي ذلك الرّجل. ويُحكى

أنَّه حلَّ بالمدينةِ وَلَدَيْهِ القليلُ من المالِ لا يتجاوزُ بضعَ مئاتٍ من الفرنكات، وهو يلبسُ ملابسَ العمّالِ ويتحدَّثُ مثلَهم.

وصدفَ أنَّه في يومِ دخولِهِ إلى المدينةِ حاملاً كيسَه على ظهرِهِ ومُمسكاً عصاه بيده، اشتعلت النّارُ في دارِ البلديَّةِ فألقى بنفسه في أتونها وأنقذَ ولديْ أحدِ الدَّرك، لذا لم يفكِّر أحدٌ في أنْ يطرحَ عليه أيَّ سؤال. ومنذُ ذلك الحين عُرف اسمُه وكان يُدعى الأَب مادلين. إنَّه رجلٌ في حواليْ الخمسين من العمر، ذو مظهرٍ جديٍّ وطيِّب. وهذا كلُّ ما يُمكنُ أنْ يُقالَ عنه.

وبعد خمسِ سنواتٍ من وصوله، أيْ في سنةِ ١٨٢٠، عيَّنهُ الملكُ عُمدةً للمدينةِ فرفض، لكنَّه قَبِلَ نُزولاً عندَ رجاءِ السكّان، وعلى صياحِ امرأةٍ عجوزٍ هتفت به: «إنَّ العمدةَ الطيِّب نافعٌ، فهل يتراجعُ المرءُ أمامَ الخيرِ الذي يستطيعُ فعلَه؟»

وهكذا أصبحَ الأبُ مادلين السيد مادلين ثمَّ السيدُ العمدة وبقيَ بنفسِ البساطةِ التي كان عليها في اليومِ الأول. كان رماديَّ الشَّعرِ، جديَّ النَّظرةِ خشنَ البَشرةِ كالعمّال. وكان يعتمرُ عادةً قبَّعةً ويرتدي سُترةً طويلةً من الجوخِ ويُؤدّي واجباتِه كعمدة. لكنَّه، خارجَ مقرِّه، كان يحيا وحيداً، لا

يُحدِّث إلاَّ القليلينَ ويكتفي بالتَّحيَّة من بعيد ثم يبتسم وينصرفُ بسرعة.

ورغمَ تخطيِّه سنَّ الشَّباب، فلقد كان يُقال أنَّه يتمتَّعُ بقوَّةٍ مُدهشة، إذ كان يُساعدُ مَنْ يحتاجُ للعون، وينهضُ الحصان ويدفعُ العجلةَ ويُوقفُ الحيوانَ الشّاردَ بالإمساكِ بقرنيْه. كان يخرجُ بجيبٍ ممتلىءٍ بالنُّقود ويعودُ خاليَ الوفاض. وعندَ مُروره بإحدى القرى كان الأولادُ يركضون إليه فَرِحين ويتحلَّقون حولَه.

كان يقومُ بكثيرٍ من أعمالِ الخير مُتخفِّياً كمنْ يقومُ بأعمالِ الشرِّ، وكان لطيفاً وحزيناً، ممَّا جعلَ النَّاسَ يقولون عنه: «هاكُمُ غنيّاً لا يبدو عليه السُّرور!»

يحكي البعضُ أنَّ الدُّخولَ كان محظوراً إلى غرفته التي لا تحوي سوى سريرٍ حديديٍّ وكرسي وطاولةٍ من الخشبِ الأبيض. وبالنِّسبةِ للآخرين، فقد كان يملكُ مبالغَ طائلة في مصرف «لافيت»، طلبَ أنْ يكون بمقدوره وبصورةٍ دائمة أنْ ينقُلها في بضعِ دقائق. ولم تكنْ ملايينُه في الواقعِ تتعدَّى ستّمئة وثلاثينَ أوْ أربعينَ ألف فرنك.

* * *

جافير

لم يكنِ السيدُ مادلين في بادىء الأمر محبوباً، مثلُه في ذلك مثلُ كلِّ النّاجحين، لكنْ أتى زمنٌ أصبحتْ فيه عبارة: «السيد العمدة» في «موازي سيرمار» تُقاربُ عبارةَ: «سيدنا الأسقف» في ديني سنة ١٨١٣. وكان النّاسُ يقصدونه من مسافةِ أربعينَ كيلومتراً كي يطلبوا منه النُّصح.

كان هناك رجلٌ واحدٌ في البلد يضُنُّ بصداقتِه على السيد مادلين. وعندما كان هذا الأخيرُ يمرُّ في أحدِ الشّوارعِ مُحاطاً بأصدقائه، كان هناك غالباً رجلٌ طويلُ القامةِ يلبسُ سُترةً رماديّةً مُسلحاً بعصى، يلتفتُ ويتبعُه بنظراتِه ثمَّ يهزُّ رأسَه ببطءٍ ويفكِّر: «لكنْ مَنْ يكونُ هذا الرّجل؟ لقد رأيتُه بالتّأكيد فهو لا يخدعني!»

كان هذا الرّجلُ يُدعى «جافير» وهو من رجال الشّرطة.

كان لجافير أنفٌ غليظٌ أفطس، ووجنتان يُغطِّيهما الشّعرُ الكثيف. وعندما يضحك ـ وهو أمرٌ نادرُ الحدوث ـ كانتْ شفتاه الرّقيقتان تنفرجان عن كلِّ أسنانه، ويتجعَّدُ الجلدُ حولَ أنفِهِ فيبدو كالحيوان.

كان جدّياً، حالماً وحزيناً، ذا نظرةٍ حادَّةٍ كالسكِّين، وكان يعملُ ليلَ نهار كشرطيٍّ بنفسِ إخلاصِ الكاهن، وبالنِّسبةِ له، فإنَّ مُوظَّفَ الحكومةِ، مهما صَغُرَ شأنُهُ، لا يُمكنُ أنْ يُخطىء، لذا لا يُمكنُ توقُّع أيِّ خيرٍ ممنِ ارتكبَ أقلَّ هفوة. ويا ويْلَ مَنْ يقعُ تحتَ يدِهِ، فهو لا يتردَّدُ في توقيفِ أبيهِ أو أُمِّهِ وبسرور.

كانتْ قُبَّعتُه تخفي جبهتَه، أمَّا عيناهُ فيُغطِّيهما وَبَرٌ طويل. كانتْ ربطةُ عُنقه تخفي ذقنَه وكُمّاهُ تسترُان يديْهِ وسترتُهُ تُغطِّي عصاه. وكان لونُه بلونِ الحائط. وحين تظهرُ جبهةٌ ضيِّقةٌ، ونظرةٌ مُعاديةٌ وذقنٌ تنمُّ عن الخبث، ويدانِ غليظتان وعصا ثخينة فاعلمْ أنَّه جافير.

كان جافير كعينٍ مُثبَّتةٍ على السيد مادلين الذي شعرَ بذلك

أخيراً لكنّه بدا كمنْ لا يهتمّ، وتحمّلَ تلكَ النَّظرةَ المُزعجةَ والثَّقيلةَ إلى حدٍّ ما. وكان طيِّباً مع ذلك الرّجلِ كما كان مع سائرِ النّاس.

* * *



الأبَ فوشليڤان

مرّ السيد مادلين ذاتَ صباحٍ في شارعٍ صغيرٍ من «مونراي سيرمار»، فسمعَ ضجَّةً ورأى جَمعاً من النَّاسِ حولَ رجلٍ عجوزٍ يُدعى الاب «فوشليفان» كان قد سقطَ تحتَ عربتِهِ. وكان الحصانُ كذلك على الأرضِ.

كانتْ قائمتا الحصانِ مكسورتين فلم يكنْ بمقدُورِهِ النُّهوض، وكان العجوزُ عالقاً بين العجلات، ينوءُ صدره تحتَ ثِقَلِ العربةِ المُحمَّلة. كان العجوزُ المسكينُ يصيحُ والنَّاسُ يُحاولونَ سَحْبَهُ دون جَدوى، فأيَّةُ مُساعدةٍ أو أيُّ جُهدٍ في غيرِ محلِّه يمكنُ أنْ يقتلَهُ. كان إنقاذُه يقتضي رفعَ العربة، لذا أرسلَ جافير الذي كان حاضراً وقتَ الحادثِ في طلبِ رافعة.

وصلَ السيد مادلين فأُفسحَ له مكانٌ بكلِّ احترام. وعندها صاح «فوشليفان» العجوز: «النَّجدة!!».

التفتَ السيدُ مادلين إلى المُحيطينَ به سائلاً: «هل لديكم رافعة؟» فأجابَ أحدُ الفلاَّحين: «لقد ذهبَ بعضهُم لإحضارِ رافعةٍ لكنَّ ذلك يتطلَّبُ ربعَ ساعة.»

ــ ربع ساعة! مِنَ المستحيلِ انتظار ربعِ ساعة. هناك مكانٌ كافٍ تحتَ العربةِ يستطيعُ رجلٌ أنْ يمرَّ منه فيرفعُها بظهره. وبنصفِ دقيقةٍ فقط يسحبُ الرَّجلُ المسكين فهل يُريد أحدُكم أنْ يكسبَ خمسَ قطعٍ ذهبيّة؟

لم يتحرَّكْ أحد.

ــ عشرُ قِطَعٍ ذهبيَّة.

خفضَ الرِّجالُ رؤوسَهم وقال أَحدُهم بصوتٍ مُنخفض:

ــ قد يُسحقُ المرء.

ــ إذن عشرون قطعةً ذهبيَّة.

سادَ الصَّمتُ نفسُه ولم يقطعْهُ سوى صوتٍ قال!

ــ إنهَّم راغبون جداً في المخاطرة.

التفتَ مادلين فشاهدَ جافير ولم يكنْ قد رآه عندَ وصوله، تابعَ هذا الأخيرُ قائلاً:

ــ لكنَّ القوَّة تَعوزُهم، إذ ينبغي أنْ يكونَ المرءُ قوياً بشكلٍ خارقٍ كيْ يتمكَّن من رفعِ عربةٍ بهذا الثِّقل على ظهره.

توقَّفَ لحظةً ثمّ استأنفَ كلامَه وهو ينظرُ إلى السيد مادلين وَيزِنُ كلَّ كلمة:

ــ لقد عرفتُ يا سيد مادلين رجلاً واحداً يستطيعُ فعلَ ما تطلبُه.. وأضافَ دون أنْ يرفعَ بصره عن العمدة:

ــ لقد كان سجيناً.

ــ آه!

ــ في طولون.

في هذه الأثناء كانتِ العربةُ مُستمرَّةً في الغوصِ البطيءِ في الأرضِ. تطلَّع مادلين حولَه وقال:

ــ ألا يريدُ إذنْ أنْ يكسبَ عشرينَ قطعةً ذهبيَّةً بإنقاذِ حياةِ هذا العجوزِ المسكين؟

فلم يتحرَّك أحدٌ من الرِّجال، وأكملَ جافير حديثَه:

— لقد قلتُ لكَ إنَّ هناك رجلاً واحداً يُمكنه أنْ يحلَّ محلَّ الرّافعة، وهو ذلك السّجين.

رفعَ مادلين رأسَه فصادفَ نظرةَ جافيرالحادّة وتطلّع إلى القرويّين وابتسمَ بحزنٍ ثم ركعَ على ركبتيْه دون أنْ ينطقَ بكلمةٍ وتمدَّد تحتَ العربة.

سادتْ لحظةٌ من السُّكونِ حاولَ مادلين خلالَها مرَّتين وهو مُمدَّدٌ تحتَ الثِّقل الرَّهيب أنْ يرفعَ العربةَ بينما حبس الرّجالَ المُحيطون به أنفاسَهم. كانتِ العجلاتُ مُستمرةً بالغوصِ في الأرض عندها صاحَ صوتٌ: «عجِّلوا بالمساعدة!» وكان لمادلين الذي بذلَ جهداً أخيراً.

انقضَّ جميعُ الرِّجالِ على العجلات، وارتفعت العربةُ على عشرين ذراعاً فنجا فوشليفان العجوز.

نهضَ مادلين بثيابٍ مُمزَّقةٍ وملطَّخةٍ بالوحل فبكي الجميعُ تأثُّراً وقبَّل العجوزُ ركبتيْه داعياً إيَّاهُ بـ «مُرْسَلِ العنايةِ الإلهيَّة». أمَّا هو فكان يبدو على وجهه تعبٌ سعيدٌ وهو ينظرُ بطمأنينةٍ إلى جافير. كانتْ ساقُ فوشليفان قد كُسرتْ، فأمرَ مادلين بحملِهِ إلى المستوصفِ الذي بناهُ لِعُمَّالِه.

وفي صباحِ اليومِ التَّالي وجدَ العجوزُ ألفَ فرنكٍ على الطَّاولةِ المُجاورةِ لسريره، مع هذه الكلمةِ من مادلين: «إنَّني أشتري منكَ عربتَكَ وحصانَكَ». كانتِ العربةُ قد تحطَّمتْ والحصانُ قد نُفق.

شُفيَ فوشليفان، لكنَّ ركبتَهُ بقيتْ تُؤلمه، فعيَّنه السيدُ مادلين بُستانياً في سان أنطوان في باريس.

* * *



الهبوط

كان كلُّ سكَّانِ «مونتراي سيرمار» سعداءَ وأثرياء، فالعملُ مُتوفِّرٌ للجميع. وعندما عادتْ فانتين لم تتعرَّف على أحدٍ فقصدتْ مصنعَ السيد مادلين واستُخدمتْ في قسم النّساء.

لم تكنْ تُجيدُ مهنتهَا الجديدة، لذا لم يكن باستطاعتِها أنْ تبرعَ فيها، فكانتْ تقبضُ القليلَ من المالِ لكنّها كانتْ تكسبُ معيشتَها.

وبعد سنةٍ فقدتْ فانتين عملَها فعزَتْ ذلك إلى السيد مادلين وكرهتْهُ رغمَ أنَّه لم يعرفْ بالأمر. بدأتْ تخيطُ قمصاناً خشنةً للجنود وتكسبُ فقط إثنتي عشر قرشاً في اليومِ. انقضتْ شهورٌ ولم تتمكَّنْ من دفعِ ما عليها لآلِ تيناردييه.

كان العيشُ مع ابنتِها الصَّغيرة سعادةً كُبرى بالنِّسبةِ لها ففكَّرتْ باستقدامها. لكنْ لِمَ تفعلُ ذلك؟ ألِتُشَاطِرها بُؤسَها؟

ثُمَّ إنهّا مَدِينةٌ لآلِ تيناردييه فكيف تدفع؟ وكيفَ تُسدِّدُ مصاريفَ السَّفرِ أيضاً؟

إنَّ كثرةَ العملِ مُتعبة، لذا أخذَ سعالُ فانتين بالازدياد، وكانتْ تقولُ أحياناً لجارتها: «أُنظري إلى يديَّ كم هما حارَّتان!»

أمضتْ فانتين ليالٍ عديدة تبكي وتسعلُ دون أنْ تشكو. وكانت تعملُ بالخياطةِ سبعَ عَشْرةَ ساعةٍ يومياً. لكنَّ مدير السِّجنِ أجبرَ السُّجناءَ على العملِ الشبه المجاني وخفَّض الأجور، فلم تَعُدِ العاملاتُ يتقاضيْن سوى تسعة قروشٍ لقاءَ سبعَ عشرة ساعة من العمل.

وفي نفسِ الوقتِ تقريباً كتبَ لها السيد تيناردييه أنَّه قدِ انتظرَ بطيبةٍ أطولَ ممَّا ينبغي وأنَّه يلزمُه مئةَ فرنكٍ فوراً وإلاَّ طردَ كوزيتْ التي كانتْ قد شُفيتْ من مرضٍ عَرَّضها للموت.

في مكتبِ الشّرطَة

في كلِّ المدنِ الصّغيرةِ ومنها «مونتراي سيرمار» شبّانٌ يعتقدونَ في أنفسهم الذّكاء، يَصطادون ويُدخّنون ويشربون الخمرَ ويُقامرون ويُراقبون مرورَ المسافرين دون أنْ يعملوا. إنّهم بكلِّ بساطةٍ أُناسٌ لا يعرفون ما يفعلون.

وفي الأيّامِ الأُولى من كانون الثاني ١٨٢٣، وفي مساءٍ مُثلجٍ تَشاجرَ أحدُ هؤلاءِ الشّبّابِ مع امرأةٍ مسكينةٍ قُربَ أحدِ المقاهي. وكان كلّما مرّتْ هذه المرأةُ أمامَ الشّابّ ينفثُ الدُّخانَ في وجهها ويقولُ لها:

ـ كم أنتِ دميمة! هل تُريدينَ أنْ تختبئي؟ إنّ شعرَكِ وسخ! وسخ! الخ...

كانَ الشّابُّ يُدعى السيد باما تابوا، أمّا المرأةُ التي تذرعُ الثّلجَ جيئةً وذهاباً فلم تكنْ تُحبُّه أو تنظرُ إليه. وعندما أولتْهُ

ظهرَها، تقدّمَ الرَّجلُ منها وانحنى والتقطَ قليلاً من الثّلجِ وضعهَ في ظهرها. صرختِ المرأةُ واستدارتْ ثُمَّ انقضّتْ على الشّابِ.. إنهّا فانتين.

خرجَ زبائنُ المقهى وأحاطوا بالمُتقاتلين. كانتْ قُبّعةُ الشّابِّ مُلقاةً أرضاً وكانتِ المرأةُ تكيلُ له الضّربات بقبضتيْها وقدميْها.

فجأةً أمسكَ رجلٌ طويلُ القامةِ بذراعِ المرأةِ وقال لها «إتبعيني» فرفعتْ رأسَها وغارَ صوتُها وابيضّتْ عيناها لأنها عرفتْ في الرّجل جافير. أمّا الشّابُّ فلقدِ اختفى.

سار جافير بخُطى عريضة نحوَ مكتب الشّرطة وهو يُمسكُ بيد البائسةِ التي لم تُقاوم. لم ينطقْ أحدهُما بكلمةٍ بينما كانَ النّاسُ يتبعونهَما ضاحِكين.

كان مكتبُ الشّرطةِ عِبارةً عن قاعةٍ مُنخفضةِ السّقف، تُدفّئُها موقدة. فتحَ جافيرٌ الباب ودخلَ مع فانتين ثُمَّ أغلقَ البابَ وراءَهُ فارتمتْ فانتين في إحدى الزّوايا ككلبةٍ مذعورة. جلسَ جافير وأخرجَ ورقةً شرَعَ بالكتابةِ عليها. وعندما انتهى وقّع وطوى الورقة وقال لِلشرطيّ المُناوب: «خُذْ ثلاثةَ رجالٍ واقتادوا هذهِ المرأةَ الى السّجن». ثُمَّ التفتَ إلى فانتين قائلاً:

ــ ستقضين فيهِ ستَّةَ أشهر.

فصاحتِ البائسة:

ستَّةُ أشهر! ستَّة أشهرٍ في السّجن! ستّة أشهرٍ أكسبُ فيها سبعةَ قروشٍ يومياً! لكنْ ما الذي ستؤولُ إليه حالُ كوزيت، إبنتي؟ إنّني لا أزالُ مَدينةً بأكثر من مئةِ فرنك لآل تينـارديه، فهل تـ رفُ ذلك يا سيدي؟

ثُمَّ حبتْ على ركبتيْها أمامَ كُلِّ الرِّجال ويداها ممدودتان دون أنْ تنهضَ، وقالتْ:

ــ أنا لم أُخْطِىء يا سيد جافير، فافهمني. إنَّ ذلك الشَّابَّ الذي لا أَعرفُه هو الذي وضعَ الثَّلجَ في ظهري فأصابني بردٌ شديد، وأنا كما ترى مريضةٌ قليلاً.

تابعتْ توسُّلاتِها مُنحنيةً وقد أعمتها الدُّموعُ وهي تسعـلُ سُعالاً جافـاً وقصـيراً. . وكانـت تتـوقَّفُ أحيانـاً فتُقبِّـلُ قدم الشّرطي، ولكنْ ما نفعُ ذلك مع قلبٍ من حجر؟

قال جافير:

ــ لقـد أصغيتُ إليكِ، فهـل قلـتِ شيء؟ سِيري الآن

فأمامَك ستَّةُ أشهرٍ لا يستطيعُ أحدٌ مهما ارتفع شأنُه أنْ يُغيِّـر شيئاً منها.

توسَّلتْ أيضـاً فأدار لهـا جافـير ظهـرَه، وأمسـكَ الجنـودُ بذراعيْها.

في هذه الأَثناء كانتْ قد مرَّتْ بضعُ دقائقَ على دخول رجلٍ إلى الغرفة، رجلٌ أغلقَ البابَ وسمعَ توسُّلاتِ فانتين اليائسة. وفي اللّحظةِ التي وضَعَ فيها الجنودُ أيديهم على التَّعيسةِ التي رفضتِ النُّهوض، خطا الرَّجلُ خُطوةً وخرجَ من الظلِّ قائلاً:

ــ لحظةً من فضلكم.

رفعَ جافير عينيْه فتعرَّف على السيد مادلـين. حيَّاهُ بنـزعِ قُبَّعته وقال: «عفواً يا سيدي العمدة. .»

لفتتْ عبارةُ «سيدي العمدة» انتباه فانتين فنهضتْ ودَفَعَتْ الجنودَ بذراعيْها واتَّجهتْ رأساً إلى السيد مادلين الذي سدَّدتْ إليه نظرةً مجنونةً وصاحتْ: «آه! هذا أنتَ يا سيادة العمدة!» وأخذتْ تضحك وبصقتْ في وجهه.

مسح السيد مادلين وجهَه وقال: «أطلقْ سراحَ هذه المرأةِ يا جافـير». فاعتقـدَ الشّرطي أنّـه قد أُصيبَ بالجنـون لأنَّ رؤية

شخصٍ يبصقُ في وجهِ العمدة أمرٌ مخيف. خانه التَّفكيرُ والكلامُ فصمت.

لم تكنْ فانتين أقلَّ دهشةً منه، فنظرتْ حولَها وبدأت تتكلّمُ بصوتٍ مُنخفضٍ، كما لو كانتْ تُحدِّثُ نفسَها: «حُرة! يَتركُني! لا أدخلُ السِّجنَ لستَّةِ أشهر! مَنْ قال ذلك؟ إنّه لأمرٌ مستحيل! لقد أسأتُ السَّمع! أهُوَ أنتَ يا سيد جافير الطَّيّب مَنْ أمرتَ بإطلاقِ سراحي؟ سأشرحُ لكَ القصَّةَ وستدَعُني أنصرف: هذا العمدةُ هو سبب كلِّ شيء. لقد طردني من عملي يا سيد جافير فلم أعُدْ أكسبُ شيئاً وحلّتِ التَّعاسةُ في حياتي كلِّها.»

وجّهتْ فانتين بعدئذٍ كلامَها إلى الجنودِ فقالتْ: «أيُّها الرِّجال، لقد قال السيد جافير أنْ تتركوني أذهبْ، فأنا ذاهبة». تقدَّمتْ نحوَ البابِ ولم يكن يفصلُها عن الشّارع سوى خُطوةٍ واحدةٍ عندما استعادَ جافير القدرةَ على النُّطق فصاحَ: «أيُّها الدركيُّون، ألاَ ترون أنَّ هذه المرأة ذاهبة؟ من ذا الذي أمرَ بتركِها تنصرف؟ قال مادلين: أنا».

التفتَ الشّرطيُّ ببرودٍ نحو العمدة وقَدِ ازرقّتْ شفتاه ونَمّتْ

نظراتُه عن اليأس، وقال دونَ أنْ يرفعَ بصرَه: «هذا غيرُ ممكن يا سيدي العمدة!» فأجابَ السيد مادلين: «إنَّني لا أرفضُ التَّفاهمَ معكَ يا جافير، فهاكَ الحقيقة: لقد كنتُ ماراً بالسَّاحةِ لحظةَ اقتيادِكَ لهذه المرأة وعرفتُ كُلَّ شيء. إنَّ الرَّجُلَ هو المُخطىء وهو مَنْ كان يجبُ توقيفه.»

أجابَ جافير: «لقد بصقتْ هذه البائسةُ على سيدي العمدة
فقال السيد مادلين: «هذا يَخُصُّني أنا. لقد سمعتُ هذه المرأةَ وأنا أعرفُ ما أفعلُه.»

ـ وأنا لا أفهمُ يا سيدي العمدة ما أراه.

ـ أطِعْ إذنْ.

ـ إنَّني أطيعُ واجبي. وواجبي هو إرسالُ هذه المرأةِ إلى السجنِ لستّة أشهر.

قال السيد مادلين برقّة:

أصغِ إلى ما سأقوله: إنّها لَنْ تقضيَ فيه يوماً واحداً.

وعندَ سماعه هذه الكلماتِ، تجرّأ جافير وحدّقَ بعينيْهِ ثُمّ قال له باحترام: «ليس بوسعي أنْ أُطيعَ سيدي العمدة. إنّها

المرّةُ الأُولى في حياتي. فأنا المسؤول هنا، وهـذا من عمـلِ الشّرطة، ويتعلّقُ بي، لذا فإنّني أحتفظُ بهـذه المرأةِ المُسمّاة فانتين.»

حينئذٍ قال السيد مادلين بصوتٍ لم يسمعْهُ بعد أحدٌ في المدينة:

هذا من عملِ شرطة الشّارع، وأنا أُصدرُ الأمر بإطلاقِ سراحِ هذه المرأة.

ـ لكنْ يا سيدي العمدة. . .

ـ إنّني أُذكّرك بقانون الثالث عشر من كانون الأول ١٧٩٩، فأنت على خطأ.

ـ إسمحْ لي يا سيدي العمدة. .

ـ لا تَقُل أيّةَ كلمة.

ـ مع ذلك. .

ـ أُخرج. .

تلقّى جافير الضّربةَ وهو واقفٌ، مواجهةً وبملءِ صدرِه، فحيّا العمدةَ مُنحنياً حتى الأرض وخرج. نظرتْ إليهِ فانتين

وهو يمرُّ أمامَها دون أنْ تَعي ما يحدثُ لها. هل السيد مادلين الذي يُدافعُ عنها هو ذلكَ الرَّجلُ الذي تكرهُهُ؟ هي أخطأتْ إذن؟ إنهّا تشعرُ بولادةِ شيءٍ في قلبِها، شيءٌ حارٌّ هو مزيجٌ من الفرحِ والحب. ثمّ غابتْ عن الوعي.

* * *



بدءُ الراحة

أمرَ السيدُ مادلين بحملِ فانتين إلى مُستوصفِ مصنعهِ فوضعتْها الرَّاهباتُ في السَّرير وقدِ انتابتْها حمّى مُحرقة. وفي اللّيلةِ نفسِها كتبَ جافير رسالةً أودعها في اليومِ التّالي مكتبَ بريدِ البلدة. وكانتْ مُوجَّهةً إلى السيد شابوييه، مديرِ الشّرطة في باريس.

كانتْ حادثةُ مكتبِ الشّرطة قدِ انتشرتْ فتعرَّف الموظَّفون على خطِّ جافير واعتقدوا أنّـهُ يطلبُ مُغادرةَ المدينة.

أمّا السيد مادلين فلقد بادرَ بالكتابةِ الى آل تيناردييه الذين كانتْ فانتين مَدينةً لهم بمئة وعشرينَ فرنكاً، وأرسَلَ لهم ثلاثمئة فرنك طالباً منهم أنْ يقتطعوا دينَهم من هذا المبلغ وأنْ يُسارعوا بإحضارِ الطّفلةِ إلى مونتراي سيرمار حيثُ تنتظرُها والدتُها المريضة.

أضاعتِ الرِّسالةُ صوابَ السيد تيناردييه فقال لزوجته: «لِنحتفظ بالطِّفلة لأنَّها ستدرُّ علينا مالاً كثيراً.» وفي هذه الأثناء لم تتحسَّنْ صحّةُ فانتين وبقيتْ في المستوصفِ حيثُ كان السيد مادلين يزورُها مرَّتين في اليوم. وفي كلِّ مرَّةٍ كانتْ تسألُه بلهفة: «هل سأرى كوزيت عن قريب؟» فيُجيبها: «ربَّما تمَّ ذلك غداً صباحاً فأنا أنتظرُ وصولَها من لحظةٍ لأُخرى»

ــ آه كم سأكونُ سعيدة!

لكنَّ الحمَّى ازدادتْ فاستدعىَ الطّبيبُ وقال له السيد مادلين:

ــ حسناً؟

ــ أليسَ لها طفلٌ تودُّ رُؤيَته؟

ــ أجلْ.

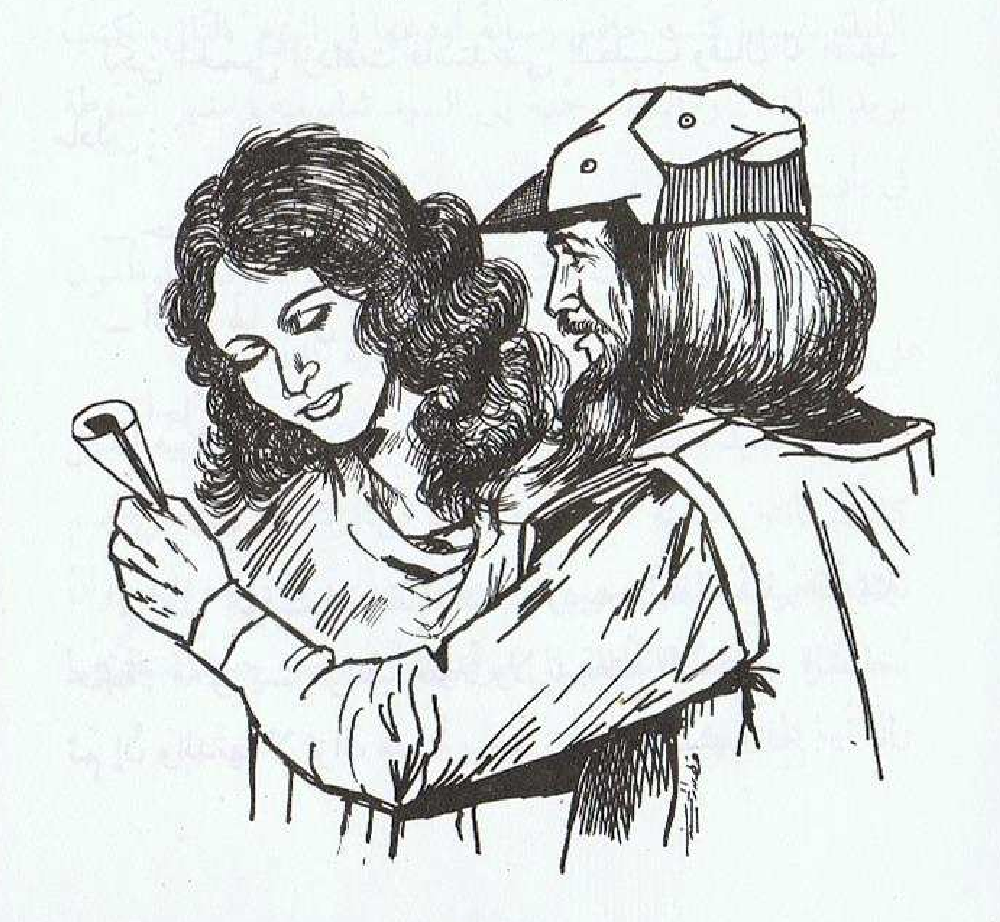
ــ أسرعوا باستقدامِه.

في هذا الوقتِ احتفظَ الأب تيناردييه بالطّفلة مُتذرِّعاً بمئةِ حجّة: فكوزيت مريضةٌ قليلاً ولا تستطيعُ السَّفرَ في الشّتاء. ثمّ إنَّ والدتَها لا تزالُ مَدينةً ببعضِ المالِ بِسَبَبِها الخ.. قال

السيدُ مادلين: سأرسلُ بعضَ النّاس لإحضارِ كوزيت، وإذا اقتضى الأمرُ فسأذهبُ بنفسي.» ثم جعلَ فانتين تُوقّعُ الرِّسالةَ التالية: «يا سيد تيناردييه. سَلّم كوزيت إلى حاملِ هذه الرسالةِ وسيَدفعُ لكَ كلَّ المبالغِ المُتبقّاة. أُحيّيك باحترام. فانتين.»

وفي هذه اللّحظةِ حَدَثَ أمرٌ في غايةِ الجديّة.

* * *



شامباتيو وَجان ڤالجَان

فكّرَ السيد مادلين أنْ يذهبَ بنفسِه إلى مونغارماي. وذات صباحٍ بينما كان في مكتبه مشغولاً بتحضيرِ سفرِه أُخبرَ بأنَّ جافير يطلبُ مُقابلتَهُ.

وضعَ العمدةُ ريشتَه جانباً والتفتَ نصفَ التفاتةٍ قائلاً: «حسناً، ما الأمرُ يا جافير؟»

صمتَ الشّرطيُّ لحظةً ثم أجاب:

ــ ألأَمرُ يتلخَّص في أنَّ شرطياً بسيطاً قد خرجَ عن احترام عمدة، ولقد أتيتُ كما يُمليه عليَّ واجبي، لأُذكّرَ بالواقعة.

ــ ومَنْ هو هذا الشّرطي؟

ــ أنا.

ــ أنت؟

نهضَ السيد مادلين فتابعَ جافير كلامَهُ وهو خفيضُ البصر:

ـ لقد اتيتُ لأرجوكَ يا سيدي العمدة أنْ تطلبَ طردي. منذُ ستَّة أسابيع وبعد حادثةِ فانتين تلك، كنتُ غاضباً فكتبتُ رسالةً ضدّك.

ـ ضدّي! ولمن؟

ـ للشرطة في باريس.

ضحكَ السيد مادلين الذي لم يكن يضحكُ أكثرَ من جافير وقال:

ـ كعمدة أُصدرُ أوامر الشرطي؟

ـ كلاّ، كسجينٍ قديم.

شَحُبَ وجهُ العمدةِ، لكنَّ جافير بقيَ مُطرقاً وقال:

ـ لقد اعتقدتُ ذلك طويلاً وسألتُ فافرول. ثمّ قوتُّكَ الخارقة، وعربةُ فوشليفان، ومهارتُك. كنتُ أعتقدُ أنَّك المدعو جان فالجان.

ـ ألمدعو؟ ما هو الأسمُ الذي قلتَهُ؟

ـ جان فالجان. إنّه سَجينٌ عرفْتُهُ منذُ عشرينَ سنة عندما

كنتُ مديرَ سجنِ طولون. ويُقالُ أنَّ جان فالجان هذا عند خُروجه من السّجن سرقَ أسقفاً ثم سرقَ ولداً، ولكنَّهم عثروا عليه...

وقعتِ الورقةُ التي كان السيد مادلين يُمسكها من يديْه، فنظرَ إلى جافير بطريقةٍ مُثيرةٍ للفُضول: «آه!»

تابعَ جافير: «لقدِ اعتُقلَ مُؤخَّراً في هذا الخريف يا سيدي العمدة المدعو شامباتيو لسرقته تُفّاحاً وكان غصنُ التُّفاحِ لا يزالُ في يده. لم يكن هناك مكانٌ في السّجن الذي هو قيدُ التّصليح، فأُرسلَ إلى «أراس» حيثُ يُوجدُ سجينٌ قديم يُدعى «بريفه» صاحَ «إيه! لكنّي أعرفُ ذلك الرّجلَ فلقد كان في سجنِ طولون منذُ عِشْرِينَ عاماً وكُنّا فيه معاً. إنّه يُدعى جان فالجان»

أصرّ شامباتيو على الإنكار فأجريتُ تحرّياتٍ أدّتْ إلى أنَّ شامباتيو كان مُنذ ثلاثينَ سنة قاطعَ أشجارٍ في عدّةِ مناطق ومنها فافرول. وهناك لم يعُد يعرفُ مصيرهُ. سُئلَ عنه في طولون حيثُ بقى سجينان عرفا جان فالجان بالإضافةِ إلى بريفه. إنّهما المحكومان بالسّجن المؤبّد «كوشباي» و

«شينيلديو». استُقدما فكان شامباتيو بالنّسبةِ لهما وبالنّسبةِ لبريفه هو نفسُه جان فالجان وفي هذا الوقتِ بالذّاتِ وجّهتُ رسالةً ضدَّكَ إلى باريس. فأجابوني أنّي لا أدري ما أقول وأنّ جان فالجان في سجنِ أراس. كتبتُ إلى أراس فاستدعوني وأحضروا لي شامباتيو. عندئذٍ قاطعَهُ السيد مادلين: «ثمّ ماذا؟» فأجابَ جافير بوجهِه المستقيم الحزين: «إنّ الحقيقةَ يا سيدي العمدة هي الحقيقة. إنَّ ذلك الرّجلَ هو جان فالجان ولقد تعرَّفتُ عليه أنا أيضاً.

عادَ السيد مادلين إلى السُّؤالِ بصوتٍ مُنخفضٍ جداً: «هل أنتَ متأكد؟» فضحكَ جافير ضحكةَ مَنْ لا يُخامرُهُ أدنى شك وقال: «كلَّ التّأكيد، حتى إنّني الآن لا أفهمُ كيف استطعتُ أنْ اعتقدُ أمراً آخر. إنّني أسألُكَ المعذرةَ يا سيدي العمدة.»

أجابَ السيد مادلين بهذا السُّؤال: «وما الذي يقولُه ذلك الرّجل؟»

ـ إنَّ القضيّةَ سيّئةٌ يا سيدي العمدة. فالقفزُ من فوقِ الجدارِ وكسرُ غُصنٍ وسرَقَةُ تفّاح، كلُّ هذا ليس أمراً هاماً

بالنّسبةِ لسارق مُبتدىء. أمّا بالنّسبةِ لمحكومٍ سابقٍ فالأمرُ بغايةِ الجدية، إذ لم يعدْ يُؤدّي للسّجنِ بضعةِ أيام بل للسّجن المؤبّد. ثمّ إنّ هناك قضيّة الطّفلةِ التي آملُ أنْ تعودَ. إنّ شخصاً آخر غير جان فالجان قد يُدافعُ عن نفسهِ لكنّه هو لن يفعلْ، فهو يتظاهرُ بعدمِ الفهمِ ويقول: «إنّني شامباتيو ولن أحيدَ عن ذلك» آه إنّ الرَّجلُ ذكيٌّ لكنْ دون جدوى فقد تعرّفَ عليه أربعةُ أشخاصٍ وسيّدان. أنا ذاهبٌ إلى أراس».

جلسَ السيد مادلين وراءَ مكتبِهِ واستعادَ أوراقَهُ ينظرُ إليها بهدوء، يقرأُ تارةً ويكتبُ طوراً كرجلٍ مشغولٍ جداً. ثمّ التفتَ نحو جافير قائلاً: «هذا يكفي يا جافير فكلّ ما ذكرتَه لا يهمُّني. لدينا قضايا مُستعجلة، فلا يجبُ أنْ نضيعَ وقتَنا. غداً ستذهبُ..

ـ أعتقدُ أنّني قد قلتُ لسيدي العمدة بإنني لن أنتظرَ غداً وأني ذاهبٌ هذه اللّيلةِ.

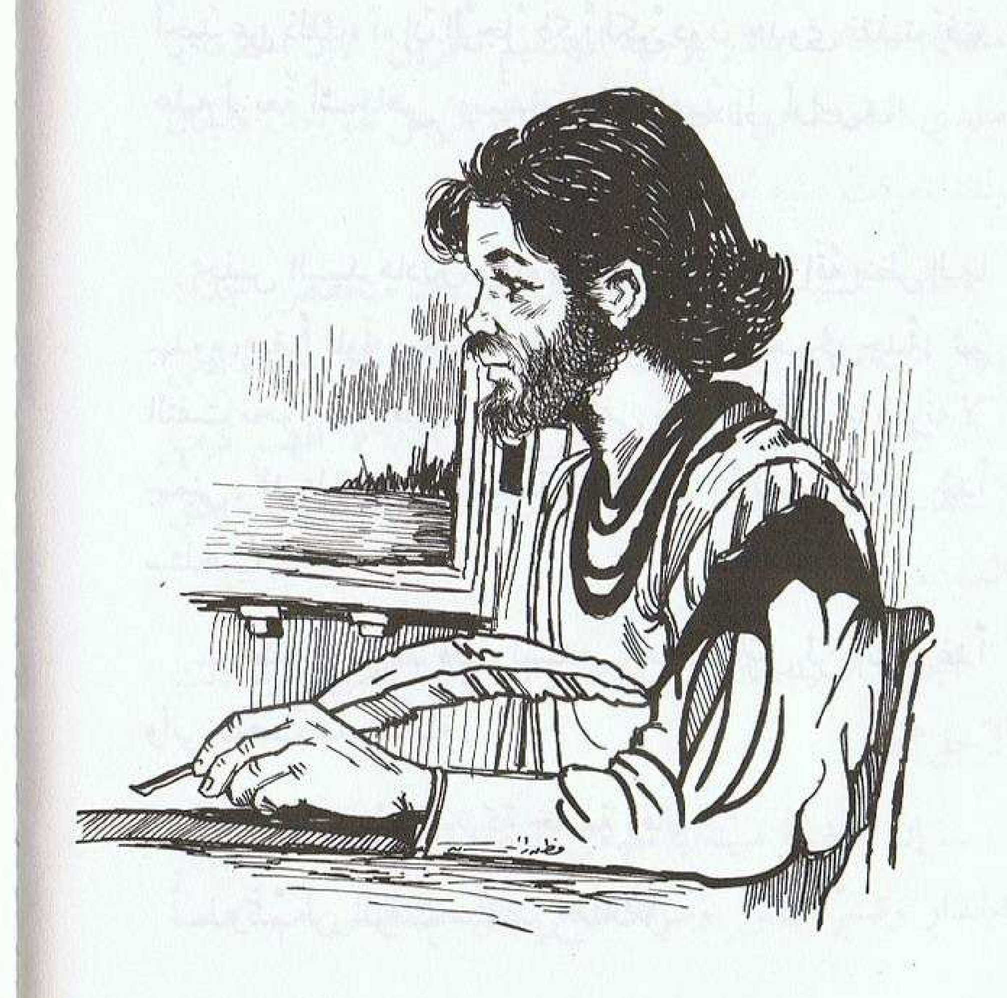
قامَ السيد مادلين بحركةٍ خفيفةٍ وقال:

ـ وكمْ من الوقتِ ستقضي هناك؟

ـ نهاراً على الأكثر. فسيصدرُ الحكمُ ليلَ الغد على أبعدِ تقدير وسأعودُ فوراً إلى هنا.

ـ هذا حسن.

* * *



المعلّم سكوفلير

ذهبَ السيد مادلين لرُؤْيةِ فانتين بعدَ الظّهر وكانتْ تنتظرُه ككلِّ يومٍ وهي محمومةٌ جداً فسألته:

ـ وكوزيت؟

فأجابها باسماً:

ـ قريباً.

تحدّثَ كالعادةِ وطلبَ من الجميعِ ألاّ يَدعوا المريضةَ تحتاج إلى أيِّ شيء. وقد مكثَ عندها ساعةً بدلاً من نصفِ ساعة.

ثمّ عادَ إلى مقرّ العُمدةِ حيثُ رآه الحاجبُ يدرسُ خارطةً لِطُرُقِ فرنسا موجودةً قُربَ المدخل، ثم يُدوِّنُ بالقلمِ بعضَ الأرقامِ على ورقة.

ومن دار العمدة توجّه إلى خانِ المعلّم سكوفلير الذي يؤجر

جياداً وعربات فسأله:

– هل لديكَ يا معلّم سكوفلير جوادٌ طيّب؟

– ماذا تعني بجوادٍ طيّبٍ يا سيدي العمدة؟

– أعني حصاناً يستطيعُ قطعَ ثمانينَ كيلومتراً في نهارٍ واحد.

– أوه! ثمانين كيلومتراً!

– أجلْ.

– وهو يجرّ عربة؟

– أجلْ ويجبُ أنْ يتمكّن من العودةِ حينَ الحاجة.

– كيْ يجتاز ثانيةً ثمانينَ كيلومتراً؟

– أجلْ.

– يا إلهي! ثمانين كيلومتراً!

أخرجَ السيد مادلين من جيبه الورقةَ التي دوّن عليها الأرقام وأراها لسكوفلير كانت: ٢٠، ٢٤، ٣٤ قال:

– أُنظر، إنها ثمانية وسبعون كيلومتراً، أيْ ثمانون كيلومتراً تقريباً.

– لديّ طلبُكَ يا سيدي العمدة. إنّه جواديَ الأبيض الصّغير الذي رأيته أحياناً بالتّأكيد. إنّه حيوانٌ صغيرٌ لكنّه شريرٌ وعندما كان يُريدُ أحدُهُمْ إمتطاءَه كان يَرميه أرضاً، فاحتاروا بما يفعلونَه به. اشتريتُه وربطتُه بعربةٍ فكان هذا ما يُريده يا سيدي. إنّه وديعٌ كالبنتِ وسريعُ الجري كالرّيح. لكنْ لا ينبغي أنْ يمتطي صهوتَه أحدٌ فهذا مُنافٍ لطبعه.

وهل سيقومُ بهذه الرّحلة؟

– سيقطعُ الثمانينَ كيلومتراً دون توقّف وبأقلّ من ثمانِ ساعات. وإليك الطَّريقة التي يجب اتّباعها: أوّلاً يجب إراحتهُ ساعةً في مُنتصف الطّريق.

– سأُريحه.

– ثانياً: يجب أنْ يُدفعَ لي ثلاثونَ فرنكاً عن كلّ يومٍ بما فيها أيّامُ الرّاحة لا تقلّ قرشاً واحداً. وسيدفعُ سيدي العمدة ثمنَ كلٍّ ما سيأكلُه الجواد.

أخرجَ السيد مادلين ثلاثَ قطعٍ ذهبيّةٍ من جيبه ووضعها على الطّاولةِ قائلاً:

– هاكَ أُجرة يومين سلفاً.

ـ ثالثاً: لِمثلِ هذه الرّحلةِ يجب أنْ يُسافرَ سيدي العمدة في عربةٍ خفيفةٍ جداً أملكُها أنا.

ـ اتّفقنا. يجب أنْ تكونَ العربةُ مع الحصانِ عندي غداً صباحاً.

قال السيد مادلين ذلك وخرج، فنادى الرَّجلُ زوجتَه وقصَّ عليها الحكايةَ مُتسائلاً:

ـ إلى أينَ يُمكنُ أنْ يذهبَ السيد العمدة؟

أجابتِ المرأة.

ـ إنّهُ ذاهبٌ إلى باريس.

ـ لا أعتقدُ ذلك.

كانَ السيد مادلين قد نسيَ ورقةَ الأرقامِ على الطاولةِ فتَناولَها الرَّجلُ وتفحَّصها: «عشرون، أربعةَ وعشرون، وأربعةَ وثلاثون، هذا يعني ثلاثَ محطّات.» ثمّ التفتَ نحو زوجته قائلاً:

ـ لقد وُجدتْ!

ـ كيف؟

ـ هناك عشرون كيلومتراً من هنا لهسدين، وأربعة وعشرون من هسدين إلى سان بول وأربعةٌ وثلاثونَ من سان بول إلى أراس، فهو ذاهبٌ إذنْ إلى أراس.

في هذه الأثناء عاد السيد مادلين إلى داره، وأطفأ النّورَ في السّاعةِ الثامنةِ والنصف. وحواليْ الثانيةَ عشرة والنصف ليلاً سمعَ مُستخدمٌ تجاريٌّ يسكنُ تحتَ غرفةِ السيد مادلين وقعَ خُطى فوقَ رأسه. بعد لحظةٍ حُرِّكتْ قطعةُ أثاثٍ ثم عادَ وقعُ الخُطى. استيقظَ الرَّجلُ تماماً ونظرَ فرأى من خلالِ زجاجِ شبّاكِهِ ضوءاً على الجدارِ المُقابلِ وكان ضوء نارٍ أكثرَ منه ضوءَ قنديل. لقد كانتِ النّافذةُ مفتوحةً حتماً! أيّةُ فكرةٍ تلك! وفي مثلِ هذا البرد! عاد الرّجلُ إلى النومِ وأفاقَ ثانيةً بعد ساعةٍ ونصف. كانتْ نفسُ الخُطى البطيئة تروحُ وتجيءُ فوقَ رأسه، ورأى ضوءاً يلتمع. لكنّه كان هذه المرّةَ ضوء قنديلٍ وكانتِ النّافذةُ لا تزالُ مفتوحة.

* * *

عاصِفَةٌ في رأس

كان السيدُ مادلين هو نفسُه جان فالجان. فبعدَ لِقائِه بالأسقف ميريل، توارى عن الأنظار وباعَ فضّيات الأسقف ثم تنقّلَ من مدينةٍ لأُخرى فاجتازَ فرنسا ووصلَ إلى مونتراي سيرمار حيثُ خطرتْ له الفكرةُ التي ذكرناها وفعل ما قلناه. وعاشَ تُسيطرُ عليه فكرةُ إخفاءِ اسمه والرّجوع إلى اللّه.

لكنْ منذُ أنْ تحدّثَ إليه جافير، أيّةُ عاصفةٍ في داخِله! إنّه يستطيعُ أنْ يقولَ شيئاً واحداً وهو أنّه قد تلقّى ضربةً قوية. عاد إلى غرفتهِ فأغلقَ بابَه بالمفتاحِ وأطفأ النّور.

وضعَ رأسَه بين يديْه وفكّر: «إلى أين وصلت؟ ألَسْتُ أحلم؟ ما الذي قالوه لي؟ أحقّاً رأيتُ جافير هذا وحدّثني هكذا؟ مَنْ يُمكنْ أنْ يكونَ شامباتيو هذا؟ إنّه يُشبهني إذن. هل هذا ممكن؟ عندما أُفكّرُ أنّني بالأمسِ كنتُ شديدَ

الإطمئنان. ما الذي كنتُ أفعلُه إذنْ أمس في مثلِ هذه السّاعة؟ ما الذي سيحدُث؟ ما العمل؟

كانتْ رأسُه ملتهبةٌ فاقتربَ من النّافذةِ وفتحهَا على مصراعيْها. لم تكنْ هناك نجومٌ في السّماء فعادَ وجلسَ قُربَ الطّاولة. انقضتِ السّاعةُ الأولى على هذه الحال ثم خُيِّلَ إليه أنّه يستفيق.

أشعلَ مصباحَه من جديد وقال مُناجياً نفسَه: «ماذا، ممّ أخاف؟ لقد نجوتُ وانتهى كلُّ شيء. جافير هذا الذي كان يُلاحقُني في كلِّ مكان، قد شُغل عنّي، إنّه يُمسكُ بجان فالجان دون أنْ يكونَ لي دخلٌ بذلك، فإذا حلّتْ مصيبةٌ ببعضهم فالذّنبُ ليس ذنبي. ما الذي يلزمني إذن؟ لنْ يستطيعَ فعلَ شيءٍ ضدّي، وهذه إرادةُ الله. ولماذا يُريدُ اللّهُ هذا؟ لأُكملَ ما بدأتُه وأُتابع فعلَ الخير. لقد قرّرتُ، فَلْنتركِ الأمورَ تسيرُ وفقَ هواها، ولْندع اللّه سبحانه وتعالى يتصرّف.

كان يُكلّمُ نفسَه هكذا ثم نهضَ عن كرسيّه وبدأ يسيرُ في الغرفةِ قائلاً: «لِنتوقّف عَن التّفكير بالأمر، فلقد حسمتُه. لكنّه لم يكن يشعرُ بأيّ ارتياحٍ بَلِ العكسُ هو الأصح.

بعدَ بُرهةٍ ذهبتْ كُلُّ أقوالِه سُدًى واستأنفَ ذلك النّقاشَ المُظلم. كان هو المُتكلّم والمُصغي معاً، فكانَ يفضي بما يودُّ كتمانَه ويَصغي إلى ما لا يَرغبُ في سماعه. هل يُغلقُ البابَ أمامَ ماضيه؟ لكنّه لا يُغلقُه بل يفتحُهُ بسوءِ تصرُّفه. لقد عادَ سارقاً، يسرقُ من شخص آخر سلامَه ومكانَه تحتَ الشّمس. إنّه يُرسلُه إلى السّجنِ مدى الحياة. وعلى النّقيض من ذلك فإنقاذُ ذلك الرّجلِ والعودةُ إلى شخصيّةِ جان فالجان، يَعْنِيانِ حقاً إغلاق البابِ إلى الأبدِ أمامَ ماضيه.

«حسناً فَلْنُقرّر أو لِنَقُم بواجبنا! لننقذْ ذلك الرجل.» كان يقولُ تلكَ الكلماتِ بصوتٍ عالٍ ودون أنْ يشعر. رتَّبَ كتبه وكتبَ رسالةً يستطيعُ الدّاخلُ إلى الغرفةِ أنْ يقرأ على مُغلّفها: «إلى السيد لافيت شارع باريس» أخذَ المالَ الموجودَ عنده وجوازَه. كانتْ شفتاهُ تتحرّكان، ويرفعُ رأسه حيناً وينظرُ إلى نقطةٍ ما من الحائطِ دون أنْ يراها. وضعَ رسالةَ السيد لافيت في جيبه مع المالِ والجوازِ واستأنفَ السّير. شعرَ بالبرد فأوقدَ ناراً دون أنْ يُفكّرَ في إغلاقِ النّافذة. وفي هذه الأثناء دقّتِ السّاعةُ مُعلنةً مُنتصفَ اللّيل، فبذلَ جهداً لِيتذكّرَ ما قرر أنْ يفعلَه مُنتصباً بين النّارِ والنّافذةِ المفتوحة.

فجأةً فكّر بفانتين فتغيّرَ كُلُّ ما حولَه وما في داخِله وصاح: «ماذا؟ لقد فكّرتُ حتى الآن في نفسي فقط. أيَجبُ عليّ أنْ أسكتَ أو أنْ أتكلّم؟ أنْ أُخفيَ جسدي أو أُنقذَ نفسي؟ إنّه أنا، دائماً أنا وفقط أنا، ماذا لو فكّرتُ قليلاً بالآخرين؟ لنرَ. إذا زُلتُ ونسيتُ فما الذي سيحدثُ - سيُطلقُ سراحُ شمباتيو وأُسجنُ أنا. هذا حسن. ثمّ ماذا؟ ما الذي سيحدُثُ هنا؟ آه هنا بلدٌ ومدينةٌ ومصانعُ وعمّالٌ ورجال ونساء وعجائزٌ وأطفالٌ ومساكين. لقد أَعَلْتُ كُلَّ هؤلاء. لم يكن هناك قبلي سوى الفُقراء. لقد رفعتُ وأغنيتُ البلدَ كلّه. فإذا نقضتُ مات كُلُّ شيء - وتلكَ المرأةُ، فانتين؟ وتلك الطّفلةُ التي كنتُ أُريدُ الذَّهابَ لإحضارها والتي وعدتُ بها والدتَها؟ أَلَستُ مَديناً بشيءٍ لتلكَ المرأةِ مُقابلَ الأذى الذي سبّبتُه لها دون أنْ أعلم؟ لَوِ اختفيت لماتَتِ الأُمّ وساءتْ حالُ الطّفلة - هذا ما سيحدثُ لو تكلّمت. - وإذا لم أتكلّم؟ لِنرَ، إذا لم أتكلم؟

بعد أنْ طرحَ على نفسِه هذا السؤال، توقّفَ ودارتْ رأسُه لحظةً ولكنّه تمالَكَ نفسَه وتابع: «حسناً، سيذهبُ هذا الرَّجلُ إلى السجن مدى الحياة، هذا صحيح، ثم ماذا بعد؟ لقد سرق. أمّا أنا فسأبقى هنا وأستمر. وبعد عشر سنوات سأكونُ

قد كسبتُ عشرةَ ملايينَ أهبُها، فهل يُضيرني ذلك؟ إنّني لا أعمل من أجل نفسي فهناك مئةُ أسرةٍ، بل ألفُ أُسرةٍ سعيدة. هناك قُرى تُقامُ حيث لم تكنْ توجدُ سوى مزارع. ومزارعُ تنبتُ حيثُ لم يكنْ يوجدُ شيء. البؤسُ يختفي ومعه تختفي السَّرقةُ وجميعُ الشُّرور. وتلك الأمُّ المسكينةُ ستتولّى تربيةَ طفلتها. هاكم بلداً بأسره غنياً سعيداً.

آه، لقد كنتُ مجنوناً! فما معنى تحدُّثي عن الإسراع إلى أراس؟ كلُّ هذا بسبب سارق تُفّاحٍ عجوزٍ قدِ ارتكب بالتَّأكيد أخطاءَ اخرى. ألإنقاذِ رجلٍ، أحكمُ على أُناسٍ مساكين، على أُمّهاتٍ ونسوةٍ وأطفال؟ وعلى تلكَ الصّغيرة المسكينةِ «كوزيت» التي هي دون شك في هذه اللّحظةِ ترتجفُ برداً عند آل تيناردييه: آه من أولئكَ، فهل سأتهرّبُ من واجباتي؟ لِنَزِنْ كلَّ شيءٍ بدقّة!

نهضَ واستأنفَ الكلام. كان يُخَيّلُ إليه هذه المرّة أنّه مسرور. «نعم، لقد أصبتُ الحقيقةَ ووجدتُ ما ينبغي أنْ أفعلَه. لقد صمّمتُ، لِنترُكَ الأمورَ تسيرُ دون أنْ نتراجع. هذا في مصلحةِ الجميع. أنا مادلين وسأبقى مادلين. تَعْساً لمن هو جان فالجان، فلم يَعُدْ أنا. إنّني لا أعرفُ ذلك الرّجل. وإذا

صادفَ أنَّ أحدَهم هو في هذه السّاعةِ جان فالجان فالأمرُ لا يعنيني.

نظرَ إلى نفسِه في المرآة الموضوعةِ على الموقد وقال: «إنّ هذا القرار قد حسّن حالي، فأصبحتُ الآن رجلاً آخر» سارَ عدّةَ خُطواتٍ ثمّ توقّفَ فخُيِّلَ إليه أنّه يسمع صوتاً يَصيحُ في داخله: «جان فالجان! جان فالجان! نعم، ألأمرُ كذلك. إذهبْ فهذا حسن. كُن راضياً وابقَ عمدة. إستمر في كونكَ محبوباً، ثرياً وَربّ أطفالاً. وفي هذا الوقتِ بينما أنتَ سعيدٌ هنا، سيرتدي أَحدهُم سترةَ المساجينِ الحمراء ويحملُ إسمكَ ويجرُّ قيدَكَ في السّجن. نعم هذا تدبيرٌ حسن. يا لكَ من بائس..»

عادَ حينئذٍ إلى السّير الذي يُثير تارةً فُضولَ الرّجلِ النّائمِ في الطّابقِ تحتَه ويُوقظه تارةً أُخرى. استولى عليه اليأسُ لكلّ ما سيتوجّبُ عليه تركَه ولكلٍّ ما سينبغي استعادَتَهُ. فلنْ يذهبَ بعد الآن للتنزّه في الحقولِ ولنْ يسمعَ تغريدَ الطّيورِ في شهرِ أيار. لن يرسمَ ابتسامةً على شفاهِ الأطفالِ بل سيُغادر إلى الأبد هذا المنزل وهذه الغرفة الصّغيرة حيثُ يبدو كلُّ شيءٍ جميلاً في هذه السّاعةِ. لن يقرأ كُتبَه ولن يكتبَ على هذه الطّاولةِ

المصنوعةِ من الخشبِ الأبيض لن تُحضرَ له خادمتُه العجوزُ قهوةَ الصّباح. يا إلهي، عوضاً عن كلّ ذلك سيكون نصيبُه السّترةَ الحمراء والقيدُ في القدم والتّعبُ والرّكلات والسّرير الخشبي وكلُّ تلك الأشياء المُرعبة التي عرفها. لو كان لا يزالُ شابّاً لَهانَ الأمر، لكنّه، وهو عجوزٌ هل سينتعلُ حذاءً حديدياً في قدميْهِ العاريتين؟

هل يجبُ إنقاذُ شامباتيو؟ أمْ يجبُ أنْ يسكت؟ لمْ تتّضحِ الرُؤيةُ لديْه بعد!

* * *

أثناءَ النوم

دقّتِ السّاعةُ الثالثة صباحاً وكانتْ قد مضتْ خمسُ ساعات سار مادلين أثناءَها بهذه الطّريقةِ، وبدون توقُّفٍ تقريباً وارتمى أخيراً على مقعدٍ ونام.

أيقظتْهُ الرّيحُ الباردةُ وهي تعبثُ بمصراعِ النّافذةِ التي بقيتْ مفتوحة. كانتِ النّارُ قَدِ انطفأتْ وانخفضَ نورُ المِصباحِ بينما اللّيلُ المُظلمُ لم ينقضِ بعد.

نهضَ وقصدَ النافذةَ فلم يرَ نجوماً في السّماء. ومن مكانِه كان يستطيعُ رُؤيةَ فناءِ الدّار والشّارع. فجأةً ارتفعَ صوتٌ جافٌّ وقاسٍ على الأرض جعلهُ يخفضُ بصرَه. أيقظَه تماماً صوتٌ آخر فنظرَ وميّز أنوارَ عربةٍ صغيرةٍ ذات حصانٍ أبيض. كانتِ الأصواتُ التي سمعها هي وقعُ حوافرِ الجوادِ على الحجارةِ. فتساءل: «ما هذه العربة؟ ومن هو ذلك المُبكّر؟»

في هذه اللّحظةِ طُرق بابُ غرفتِهِ طَرْقاً خفيفاً فتملّكه الخوفُ وصاح :

ـ مَنْ هناك؟ ما هذا؟

ـ سيدي العمدة، ألسّاعة الخامسة صباحاً.

ـ وما يعنيني من ذلك؟

ـ سيدي العمدة، إنّها العربة!

ـ أيّةُ عربة؟

ـ العربةُ الصّغيرة.

ـ أيّة عربةٍ صغيرة؟

ـ ألَمْ يُوصي سيدي العمدة على عربةٍ صغيرة؟

ـ لا.

ـ إنّ الرَّجلَ الذي أحضرها يقول إنَّه جاء يطلبُ سيدي العمدة.

ـ أيّ رجل؟

ـ رجل السيد سكوفلير.

ـ السيد سكوفلير!؟

أخافه هذا الإسم كومضِ برقٍ خطفَ بصرَه فأجاب.

ـ آه! نعم، السيد سكوفلير.

ساد صمتٌ طويلٌ كان مادلين ينظرُ أثناءه إلى ضوءِ مصباحه دون أنْ يراه.

ـ عادَ الصّوتُ إلى الكلام.

ـ سيدي العمدة، بِمَ أُجيب؟

ـ قُلْ لهم حسناً، إنّي نازل.

* * *

العُصِيّ في الدّواليب

في ذلك الصباح علقتْ عربةُ البريدِ عند مدخلِ مونتراي سيرمار بعربةٍ أصغر يجرُّها جوادٌ أبيضُ ويقودُها رجلٌ متدثّرٌ بمعطفه. أُصيبَتْ عجلةُ العربةِ الصّغيرة بضربةٍ فصاحَ ساعي البريد بالرّجل أنْ يتوقّفَ، لكنَّ المُسافرَ لم يأبه له وتابع طريقَه.

إلى أينَ يذهب مادلين؟ إنّه لا يستطيعُ الإجابةَ على هذا السّؤال ولا يعرفُ لماذا يعدو بهذه السّرعة! إنّه يسيرُ قُدماً إلى الأمام. إلى اين؟ إلى أراس بدون شك، لكنّه قد يذهبُ إلى مكانٍ آخر أيضاً، فهناك شيءٌ ما يدفعهُ إلى الأمام.

لِمَ يذهبُ إلى أراس؟ إنّه يكرِّر لنفسِه ما قاله لها عندَ ذهابه إلى سكوفلير، منَ الأفضل أنْ يعرفَ ما يجري، فالمرءُ لا يستطيع أنْ يقرِّرَ دون أنْ يعرف. وعندما يرى شامباتيو هذا ـ

وهو أحدُ البؤساء ـ فقد يُسرّ بتركه يذهب إلى السّجنِ مكانه. سيكون هناك جافير و بريفيه وشينيليو وكوشباي وهؤلاء الثلاثة سجناءٌ قُدامى عرفوه لكنّهم لن يتعرّفوا عليه بالتّأكيد. فليسَ هناك أيّ خطرٍ يتهدّده. إنّه والحقُّ يُقالُ يُفضِّلُ عدمَ الذّهابِ إلى أراس ومع ذلك فهو ذاهبٌ إليها.

كان النهارُ قد لاح عِندَما وصَلَ إلى هدين فتوقّف أمَامَ نَزْلٍ يُريحُ جوادهُ ويُقدّم لهُ ما يأكُلُهُ. فلقد قطعَ عشرين كيلو متراً بساعتين دون أنْ ينزلَ من العَربة.

انحنى الخادِمُ الذي حملَ طعامَ الجواد ونَظَرَ الى العجلة اليُسرى وسأل:

ـ هل تذهبُ هكذا إلى مكانٍ بعيد؟ هذه العجلة لن تسير كيلومتراً واحداً.

ـ ما الذي تقولُه يا صديقي؟

ـ إنّني أقولُ إنَّ الحظَّ قد حالفَك فلم تقعْ أنتَ وجوادُك في حفرةٍ على الطّريقِ العام. أُنظر.

نظرَ السيد مادلين فوجدَ أنَّ الرَّجل مُحقٌّ وقال له:

ـ هل يُوجدُ هنا عاملٌ يستطيعُ إصلاحَ هذه العجلة؟

ـ دون شك يا سيدي.

ـ أسدِ لي خدمةً واذهبْ لإحضاره.

ـ إنّه على بُعدِ خطوتين. إيه يا معلّم بورغايار!

كان المعلّمُ بورغايار على عتبةِ دارهِ فأتى لِرُؤية العجلة.

سأله العمدة.

ـ هل تستطيعُ إصلاحَ هذه العجلة؟

ـ أجلْ يا سيدي.

ـ ومتى أستطيعُ مُعاودةَ السّفر؟

ـ غداً.

ـ يجبُ أنْ أستأنفَ السّير بعد ساعةٍ على الأكثر وسأدفعُ كلَّ ما تُريده.

ـ الأمرُ مُستحيلٌ اليوم فيجب **إصلاحُ** جزءٍ كاملٍ من العجلة.

ـ أليستْ لديكَ عَجَلةٌ تبيعني إيّاها فأستطيعُ الرّحيلَ حالاً؟

ـ ليستْ لديّ عجلةٌ مُلائمة لعربتك، فَعجلتان لا تَتوافقانِ لِما يبغي المرء.

ـ بِعْني إذنْ عجلتين.

ـ إنّ كُلَّ العجلات يا سيدي لا تُناسبُ جميعَ العربات.

فليستْ لدي عجلاتٌ تُناسبُ هذه العربةَ ولا يُوجدُ واحدةٌ منها في هذه القريةِ الصّغيرة.

ـ هل هناك عربةٌ يُمكنُ تأجيرها لي أو بيْعها؟

ـ لا.

ـ سأذهبُ إذنْ على ظهرِ الحصان.

ـ ولكنْ هل يمكنُ امتطاء هذا الحصان؟

ـ هذا صحيح، إنّك تُذكّرني بذلك، فليس بالإمكانِ اعتلاء صهوته. لكنْ ألاَ أجدُ في القريةِ حصاناً للايجار؟

ـ حصاناً للذهاب إلى أراس في يوم؟ يجب أنْ تشتريه إذ لا يعرفك هنا أحد. لكنّك لن تجده ولو **دفعتَ** خمسَ مئة فرنك أو الف فرنك لشرائه أو لاستئجاره.

ـ هل يوجدُ مؤجّر عربات؟

ـ كلا.

عندئذٍ شعر السيد مادلين بفرحٍ عارم يغمره، فلقد بذلَ كُلَّ الجهود المُمكنة لِمُتابعة رحلتِه، وإذا لم يذهب إلى أبعدَ من هذا المكان فلن يكونَ ذلك نتيجةَ خطئه، بل إرادة الله. وهنا تنفس الصّعداء وبحريةٍ للمرّة الأولى منذُ أنْ تحدّث إليه جافير.

لو تحدّث مادلين في فناء النزل، لبقيتِ الأُمورُ عند هذا الحد، لكنْ هناك دائماً أناسٌ يُصغون في الشّارع ، وعند مدخلِ النزل، قالتْ له امرأةٌ عجوز: «هل تُريدُ استئجار عربةٍ يا سيدي؟

ـ أجلْ، ثم أضافَ مُسرعاً:

ـ لكنّها غيرُ موجودةٍ في البلد.

ـ بلَى، عِندي.

كان لَدَى العجوزِ حقاً عربةٌ قديمةٌ جداً لكنّها تسيرُ على دولابين وتستطيعُ الذّهابَ إلى أراس. دَفَعَ مادلين الثّمن وصعدَ إلى العربةِ ثم تابعَ طريقَه.

لقد أضاعَ وقتاً طويلاً في هسدين، لكنّ الجوادَ الصّغير شجاعٌ ويشدُّ بقوّةِ اثنين. غير أنَّ هذه الأحداث كانتْ تجري في شهر شباط، وكان المطرُ قد تساقطَ فجعلَ الطُّرقَ جدّ رديئة. ثم إنَّ العربةَ لم تكُن بخفّةِ عربةِ سكوفلير فاستغرقَ قَطْعُ المسافةِ بين هسدين وسان بول أكثرَ من أربعِ ساعات.

وفي سان بول توقّفَ في أوّلِ نزْل مرّ به. وقدّم عَلَفاً للجواد. بعد ساعةٍ غادرَ سان بول ولم يتوقّفْ في «تانك» لكنّه

عند خُروجه منها، صادفَ عاملاً يرصفُ الطّريقَ بالحجارة.

رفع العاملُ رأسهُ ونظرَ إلى الحصانِ ثم قال:

ـ ألا تعرفُ أنَّ الطّريق هي قيدُ التّصليح؟ ستجدُها مقطوعةً على بُعدِ كيلومتر من هنا.

ـ حقاً؟

ـ هل تُريدُ أنْ أسدى إليك نصيحةً يا سيدي؟ إنّ جوادَكَ تعبٌ فعُدْ إلى «تانك» حيثُ يُوجدُ نزلٌ جيّد. نَمْ فيه واذهبْ غداً إلى أراس.

يجبُ أنْ أصِلَها هذا المساء.

ـ إذهبْ مع ذلك إلى هذا النزل وخُذْ حصاناً آخر واطلب منهم أنْ يرشدوك إلى الطّريق.

عملَ مادلين بالنّصيحة. فذهبَ إلى النزل وبعدَ نصفِ ساعةٍ استأنفَ سيرَه بحصانٍ ثان. كان اللّيلُ قد أرخى سُدولَه والطُّرقُ رديئةً تماماً. فكانت العربةُ تقفزُ من حفرةٍ لأُخرى. وكان السّهلُ مُظلماً والضّبابُ المنخفض يغمرُ الغاباتِ كالدّخان. أمّا الرّيحُ الآتيةُ من البحرِ فكانتْ تُحدثُ صوتاً اشبهُ بصوتِ تحريكِ الأثاث. شعرَ السيد مادلين بالبرد ولم يكُن قد أكلَ منذُ الأمس.

وفي هذه اللّحظةِ أدركَ للمرّةِ الأُولى أنّ كُلَّ ما يتحمّله من تعبٍ ربما كان عديمَ الجدوى وأنّه لا يعرفُ حتى موعدِ المحاكمةِ التي كان عليه أنْ يسألَ عنه، وأنّه من الجنون أنْ يسيرَ المرءُ إلى الأمام دون أنْ يعلمَ ما إذا كان ذلك مُجدياً. إنّ المحاكمَ تفتحُ عادةً في التّاسعةِ صباحاً وسيصلُ بعد انتهاءِ كلّ شيء.

* * *



هل يُمكِنُ لِفانتين أنْ تُشفى؟

في المستشفى، تحدّثتْ فانتين إلى الرّاهبةِ فقالت: «يا أُختي الصّالحة، إنّني جدّ مسرورة كما ترين. فالسيد مادلين طيّبُ القلب وقد ذهب لِيُحضر لي صغيرتي من مونغارماي. لا تُشيري لي أيّتها الأُخت بِعَدَمِ الكلام فأنا سعيدة جداً. وصحتي حسنة إذ لم أَعُدْ أشعرُ بأيِّ ألم. سوفَ أرى كوزيت ثانيةً فأنا لم أرها منذُ خمسِ سنوات. وسترين أنها ستكونُ في مُنتهى اللّطف. لقد كبرت الآن. سبعُ سنين! إنّها الآن آنسة! يا إلهي! كم يُخطىءُ الإنسانُ حين يمضي سنواتٍ بعيداً عن أولاده! أوه! كم العمدة طيّب القلب لقبوله الذّهاب! سيكونُ هنا غداً مع كوزيت، سأرى كوزيت غداً. أنت ترين أيّتها الأخت الطيّبة أنّني لم أَعُدْ مريضة سأرقصُ إذا أردتُم ذلك.»

حضرَ الطّبيبُ بين السّاعةِ السابعة والساعةِ الثامنة. دخلَ بهدوء وتقدّم من السرير فرأى عينين كبيرتين سوداوين تتطلّعان

إليه، قال:

ـ أعطني يدكِ.

فمدّتْ ذراعها وقالت:

ـ صحيح، أنتَ لا تعرف، إنّني قد شُفيت، فكوزيت تصلُ غداً.

تعجّبَ الطّبيب، فلقد تحسّنت حالُ مريضتِه وزالتْ عنها الحمّى وعادتِ الحياةُ إلى ذلك الجسمِ المنهوك.

وعندَ ذهابه، قال الطّبيب للراهبة: «لقد تحسّنتِ الحال وإذا وصلَ العمدةُ غداً مع الطّفلة، مَنْ يدري؟ هناك أشياء جدّ مُدهشة، فلقد رأينا أفراحاً كبيرة تُوقف الأمراض. إنّني أعلمُ جيداً أنَّ هذا المرض على جانبٍ كبيرٍ من الخطورة، ولكنْ ربّما استطعنا إنقاذَها!»

* * *

وُصُولُ المسَافِرِ ثمَّ رَحيْله

كانتِ الساعةُ تُقاربُ الثامنة مساءً عندما بلغتِ العربةُ التي تركناها في الطّريق بابَ نزل أراس. وترجّل منها الرّجلُ الذي تتبّعناهُ حتى هذه اللّحظة. لقد تطلّبَ منه الوصولُ أربعَ عشرةَ ساعة بدلاً من ثمانٍ، وهو غيرُ مسؤول عن هذا التّأخير. كان مسروراً.

خرجَ من النزل وسارَ في المدينـةِ. لم يكنْ يعـرفُ أراس وشوارعها السّوداء، فمشى قُدماً إلى الأمام. رأى رجلاً يتقدّم منه وفي يده قنديلٌ فقرّر أنْ يسأله:

ـ المحكمةُ يا سيدي من فضلك.

ـ أنتَ لستَ من المدينة؟ حسناً، إتبعني فأنا ذاهبٌ في هذا الإتجاه.

وفي الطّريق قال الرّجل:

— لقد وصلَ سيدي مُتأخراً إذ ينتهي عادةً كُلّ شيءٍ في السادسة. لكنّه عندَ وصولهما إلى السّاحةِ الكُبرى، أشارَ إلى أربعةِ شبابيكَ طويلةٍ مضاءةً قائلاً:

— لقد وصلتَ يا سيدي لحسن الحظّ في الوقتِ المُناسب. هل ترى هذه النّوافذَ الأربعة؟ هناك يجلسُ القُضاة. وبما أنّ القاعةَ مُضاءة، فلم ينْتهِ الأمر. هذا هو البابُ يا سيدي فاصعدِ السُّلّمَ الكبير.

عملَ مادلين بإشارة الرّجل فوجدَ نفسَه بعد لحظاتٍ في قاعةٍ كبيرةٍ فيها أُناسٌ كثيرون انقسموا جماعاتٍ وفيها مُحامون بأثوابهم. والكلُّ يتحدَّثُ بصوتٍ مُنخفض. كانتِ القاعةُ مُضاءةً بقنديلٍ واحد، يفصلُها بابٌ عن الغرفةِ الكبيرةِ التي تصدرُ فيها الأحكام.

اختلطَ مادلين بمجموعةٍ وأصغى إلى ما يُقال. كانتْ هناك قضايا عديدةٌ قَيْدَ النّظر، ورئيسُ المحكمةِ يُريدُ إنهاءَ الإثنتين الأولِ منها. صدرَ الحكمُ بالأُولى وجاء دورُ الثانية وهي قضيةُ عجوزٍ قد سرقَ تُفّاحاً، وقد سبقَ له أنْ كان سجيناً في طولون. بقيَ سماعُ المحامين ولنْ ينتهيَ الأمرُ قبل مُنتصفِ اللّيلِ ومن المُرجّح أنْ يُدان الرّجل.

كان أحدُ الأشخاصِ واقفاً أمامَ البابِ الكبير فسألَه مادلين:

— هل سيفتحُ البابُ يا سيدي عمّا قريب؟

— لن يُفتح.

— كيف؟

— إن القاعةَ ملأى.

— ماذا! ألَمْ يعدْ هناك مكانٌ شاغر؟

— هناك أيضاً محلاّن أو ثلاثة وراءَ السيد الرّئيس، وهي مُخصّصة للأشخاصِ المهمّين.

قال ذلك وأولاهُ ظهره.

انسحبَ مادلين وعَبر القاعةَ ثم نزلَ السلّم ببطء، وتشاور مع نفسِه. لم يكُنْ يدري ما يفعل. توقّف وفتح معطفَه وأخرج قلماً ثم مزّق ورقةً وكتبَ بسرعة: «السيد مادلين، عمدة مونتراي سيرمار». ثمّ صعد السلّم ثانيةً بخُطى كبيرة وقصدَ بابَ القاعةِ ثانيةً وسلَّم الورقةَ للرّجل الذي يحرسُه قائلاً له: «إحملْ هذه الورقةَ إلى السيد الرئيس»

أخذَ الرجل الورقةَ وألقى عليها نظرةً ثم أطاع.

* * *

دُخولُ السَّيِّدِ مادلين

كان السيد مادلين معروفاً من بعيد. وككلِّ النّاس، كان رئيسُ محكمةِ أراس يعرفُ اسمه. وعندما سلَّم له الرَّجلُ الورقةَ التي خطَّ عليها السَّطر الذي قرأناه، مُضيفاً: «هذا السيد يُريدُ الدُّخول» تناولَ ريشةً وكتبَ بضعَ كلماتٍ في أسفلِ الورقةِ ثم أعادها إلى حاملها قائلاً «أدخله».

في هذه الاثناء بقيَ مادلين التَّعيس قُرب الباب، في نفسِ المكانِ الذي تركه فيهِ الرَّجل.. ومن خلالِ تأمّلاته سمعَ أحدهُم يقول له: «هل يتفضّل سيدي باللّحاق بي؟» إنّه نفس الشَّخص الذي أدارَ له ظَهره في اللّحظةِ السّابقة وهو الآن يُحيّيه مُنحنياً حتى الأرض. وعلى الورقةِ التي ردَّها الرّجل له، قرأ مادلين: «سيكونُ الرَّئيسُ سعيداً بدخولِ السيد مادلين..»

سحق الورقةَ بين يديْه وتبعَ الرَّجلَ فتركَهُ في غرفةٍ صغيرةٍ يُنيرها مصباحان، وكلماتُه تُدوّي في أُذنيْه: «ها أنتَ يا سيدي في غرفةِ القُضاة، فأدِرْ مقبضَ هذا البابِ تجدْ نفسَكَ وراءَ سيادة الرَّئيس.»

لم يقوَ مادلين على ذلك فلقد كان في نفسِ الغرفةِ التي حُوكمَ فيها أشخاصٌ كثيرون والتي سيُلفظُ فيها اسمه بعد قليلٍ بينما هو يجتازُها في هذه اللّحظة.

لم يكنْ قد أكلَ مُنذُ أكثر من أربع وعشرينَ ساعة، وقد أتعبتْهُ العربةُ لكنّه لم يكنْ يشعرُ بذلك بل يُفكّر بفانتين وكوزيت. استدارَ فوقعتْ عيناهُ على مقبضِ الباب الذي كان قد نَسِيَه تقريباً وتوقّفتْ عنده وبقيتْ مُعلّقةً ثم تملّكهُ الخوفُ فخرج.

توقّف وأصغى ثانيةً. كان السّكونُ والظّلُّ ذاتهُما يسودان حوله. وضعَ يدَه على الجدار فأحسّ ببرودةِ الحجر وشعرَ هو نفسُه بالبرد. فأخذَ يُفكّر وهو واقفٌ في الظّلّ والبرد. كان قد أمضى اللّيلَ والنّهارَ مُفكراً فلم يعدْ يسمعُ في قرارةِ نفسِه سوى صوتٍ يقولُ له: «لسوءِ الحظّ!»

مضتْ ربعُ ساعةٍ على هذه الحال وأخيراً، أحنى رأسَه، وأسدلَ ذراعيْه ببطءٍ ثم عاد أدراجَه مُتمهّلاً، وكأنّ أحداً يُعيدُه بعد أنْ جرحه. دخل ثانيةً إلى غرفةِ القضاة، فكان أوّل ما رآه هو مقبضُ البابِ الذي تعلّقتْ عيناهُ به وفجأةً ودون شعورٍ وجد نفسَه قُربَ البابِ فأمسكَ بالمقبضِ وفتحَهُ ودخلَ القاعة.

* * *

وَراءَ الرّئيس

تقدّم خُطوةً وأغلقَ البابَ وراءَهُ دونما انتباهٍ ثم بقيَ واقفاً. رأى قاعةً كبيرةً كئيبةً وفي الطّرف الذي يوجدُ فيه جلسَ قُضاةٌ يرتدون أثواباً تقليديّةً ويبدون وكأنّهم يُفكّرون في أمرٍ آخر ويأكلون أصابعَهم أو يُغمضون أعيُنَهُمْ. وفي الطّرفِ الآخر كان هناكَ أُناسٌ يرتدون ملابسَ رثّة ومحامون يتحرّكون، وجنودٌ قُساةُ الوجوه، ثمّ سقفٌ وسخٌ وطاولاتٍ يعلوها قماشٌ مُصفرّ وأبوابٌ سوّدتْها الأيدي وقناديلُ رديئةٌ تنفثُ الدّخان.

لم يُعرهُ أحدٌ انتباهاً فلقد كانتْ كُلُّ الأنظار مشدودةً إلى نقطةٍ واحدة، إلى مقعدٍ خشبيٍّ في الظّلّ أمام بابٍ صغيرٍ على يسار الرئيس، جلسَ عليه رجلٌ بين دركيّين خُيّلَ إليه أنّه يرى نفسَه وقد شاخ، دون شبهٍ في الوجه، بل في الجسمِ مع شيءٍ من القسوةِ في العينين.

وعندما فُتحَ البابُ، أُفسحَ له مكانٌ، وأدارَ الرّئيسُ وجهَه

فأدرك أنَّ الداخل هو عمدة مونتراي سيرمار وحيّاه.

أمّا المدّعي العام الذي كان قدِ التقى بالسيد مادلين في بلدته التي ذهبَ إليها أكثرَ من مرّة، فقد تعرّف عليه وحيّاه أيضاً، فكادَ مادلين ألاّ يشعرَ بذلك ونظر. .

رأى قُضـاةً، ورجـلاً يكتـبُ ورجـالَ درك، وكثـيراً من الرُّؤوس الفضوليّة سبقَ أنْ رآها منذُ سبعةٍ وعشرين عاماً. كلُّ الأشياء المشؤومةِ عاد فوجدها ثانيةً ومـرّةً أُخرى رأى ماضيه المُرعب يعودُ إلى الظّهـور والحياة، فأغمضَ عينيْه وصرخَ في أعماقِ نفسِه: «أبداً»!

كان هناكَ كرسيٌ وراءه فارتمى عليه وحجبتْ وجهَـه عن شاغلي القاعةِ كدسةٌ من الكتب والأوراق تجمعتْ فوق مكتبِ القضاة فأصبحَ بإمكانِه أنْ يرى دون أنْ يُرى. بحثَ عن جافير فلم يجدْهُ. ربّما أخفتْهُ إحدى الطّاولات، ثمّ إنّ القاعةَ كانتْ سيّئةَ الإضاءة. أمّا السيد باما تابوا فكانَ في القاعةِ من جهةِ القُضاة.

في لحظةِ دُخول مادلين، كانـت المُحاكمـةُ قد بدأتْ منـذُ ثلاثِ ساعات، ومنذُ ذلك الوقتِ رزحَ رجلٌ مجهـولٌ، بل كائنٌ بائسٌ شيئاً فشيئاً تحت عبءٍ مُرعب. قال المدّعي العام:

«نحنُ لا نُمسكُ بسارق فاكهة فقط بل بسجين قديم، برجلٍ خطرٍ يُدعى جان فالجان. إنّ العدالةَ تبحثُ عنه منذُ زمنٍ طويل فمنذُ ثمانيةِ أعوام ارتكبَ سرقةً بعد خُروجه من سجن طولون. وها هو قد عاودَ الكرّة فاحكموا عليه لِفَعْلَتِهِ الجديدة وسيُحاكم فيما بعد على فِعلتِهِ القديمة»

بدا الرجل مُتعجباً لسماعهِ هذه الكلمات. فأخذَ يُشير بالنّفي أو ينظرُ إلى السّقف. كان يتكلّمُ ويُجيبُ بصعوبة، لكنَّ جسدَه كُلّه من رأسِه إلى قدميْه، كان ينطقُ بالنّفي. فكان كحيوانٍ وسطَ أُولئكَ النّاس الذين أمسكوا به. زحفَ الخطرُ عليه وأخذَ يزداد من دقيقةٍ لأُخرى، فعلاوةً على السّجن كانتْ عقوبةُ الموتِ مُمكنةً إذا ثبتَ فيما بعد أنّه جان فالجان وأنّه قد عاودَ السّرقة.

تكلّم محاميه فأجاد. بدأ يشرحُ سرقةَ التفاح، فموكّله الذي استمرّ في تسميته شامباتيو، لم يرهُ أحدٌ وهو يقفزُ فوقَ الحائطِ او يكسرُ الغصن. لقدِ اعتُقلَ وهو يحملُ ذلك الغصنَ لكنّه يقول إنّه قد وجده على الأرض والتقطه فهو بدون شكّ قد رُمي هناك. هناك سارقٌ بالتّأكيد لكنْ من ذا الذي يستطيعُ أنْ يُثبتَ أنَّ السّارق هو شامباتيو؟ يبقى أمرٌ واحدٌ وهو أنّه سُجن قبلاً. اعترفَ المُحامي أنَّ شامباتيو هذا قد عاشَ في فافرول

وعمل فيها وأن أربعة أشخاصٍ قد تعرّفوا في شخصهِ على السّجين السّابق جان فالجان، لكنْ هل يعني هذا أنّه قد سرق تفّاحاً؟

أجابَ المدّعي العام، فأصغى إليه شامباتيو فاغرَ الفمِ بشيءٍ من التعجّب. ومن وقتٍ لآخر كان يُحرّك رأسه يَمْنةً ويَسرة مُبدياً عدمَ موافقته، وكان هذا كلُّ شيء. أنهى المدّعي العام مُطالَعتَهُ مُطالباً بحكمٍ قاسٍ جداً، هو الأشغالُ الشاقة المُؤبدة.

نهضَ مُحامي الدّفاع ثانيةً وبدأ يشكُرُ سيادةَ المدّعي العام على الأمور التي أحسنَ قولَها ثم ردَّ كما استطاع، لكنْ مع بعضِ الضّعف.

* * *

أنظروا إليَّ

أمر رئيسُ المحكمةِ شامباتيو بالنّهوضِ وطرحَ عليه السُّؤالَ المعتاد: «هل لديْكَ ما تُضيفه للدّفاعِ عن نفسك؟»

كان الرّجلُ واقفاً يطوي في يديْه قبّعةً قديمةً رثّة، ويبدو كمنْ لا يسمع. أعادَ عليه الرّئيسُ السُّؤالَ فسمعَ وبدا عليه أنَّه قد فهم. أجالَ بصرَه حوله ونظرَ إلى النّاسِ المُحيطين به، إلى الدّركِ وإلى مُحاميه وإلى القضاة، ثم وضعَ قبضتَهُ الضّخمة على حافّةِ الطّاولةِ الموضوعةِ أمامَ مقعدِهِ وعاودَ النّظر. وفجأةً ركّز نظرَه على المدّعي العام وشرعَ في الكلام وكأنّه يريدُ أنْ يقولَ كُلَّ شيءٍ دفعةً واحدة:

«أُريدُ أنْ أقولَ هذا: لقد كنتُ سائقَ عربةٍ في باريس وعند السيد بالوب بالذّات. وهذا العملُ يُنهكُ الإنسان بسرعة. فينتهي وهو في الأربعين. أمّا أنا ففي الثالثة والخمسين.

كان لديّ ابنةٌ تغسلُ في النّهر وتكسبُ بعضَ المال من جهتها. وهكذا كُنّا نتمكّنُ نحن الإثنين من العيش. لقد كانتْ تتعبُ هي أيضاً إذ كانتْ تمضي النّهارَ كُلّه ونصفُ جسمِها في الماء، رغمَ المطر والثّلج والرّيح التي تجرحُ الوجه. كان زوجُها يضربُها فماتتْ. لقد كانتْ إبنةً صالحة. إنّني أقولُ الحقيقةَ وبإمكانكم السُّؤال. كم أنا غبيٌّ! من ذا الذي يعرفُ الأبَ شامباتيو؟ ومع ذلك فإنّني أقولُ لكم إنَّ السيد «بالوب». . راجعوا السيد بالوب. بعدَ هذا لا أدري ماذا يُرادُ منّي.»

سكتَ الرّجلُ وبقيَ واقفاً بعد أنْ قال كُلَّ تلك الأشياءِ بصوتٍ مُرتفعٍ، سريعٍ وقاسٍ. تطلّعَ حوْلَهُ فرأى النّاسَ يضحكون ولـمّا لم يفهم شرَعَ هو نفسُه يضحك. فلم يكنْ في ذلك ما يُضحك.

ذكَر الرئيسُ الذي كان طيّباً ونبيهاً أنّ السيد بالوب مُعلّم شامباتيو القديم - حسب أقواله - لم يُمكنِ العثورُ عليه ثمّ التفتَ إلى الرّجل وطلبَ منه أنْ يشرحَ الأمرَ بوُضوح.

حرّك شامباتيو رأسه كرجلٍ أجادَ الفهم ويعرفُ كيف يُجيب، ففتحَ فمَه واستدارَ نحوَ الرّئيس قائلاً: «في أوّل الأمر. .» ثمّ تطلّع إلى قُبّعته وإلى السّقف وصمت.

قال المدّعي العام: «إنتبه فأنتَ لا تُجيب على أيِّ سُؤالٍ يُطرح عليك: من المؤكّد أنّك جان فالجان وأنّك قد سرقتَ تفّاحاً من أحدِ البساتين. . »

كان الرّجلُ قد جلسَ فنهضَ دفعةً واحدةً بعدما أنهى المدّعي العام كلامَه وصاح: «أنتَ شديدُ الخبث. هذا ما كنتُ أُريدُ قولَه. أنا لم أسرق شيئاً. كنتُ قادماً من «أيي» فوجدتُ غصناً مكسوراً على الأرضِ والتقطتهُ. هذا كلُّ ما في الأمر. لقد مرّتْ ثلاثةُ أشهرٍ على وجودي في السّجن. هناك مَنْ يُكلّمني بعداءٍ ويقول لي: «أجبْ إذن. . » أنا لا أعرفُ الشَّرح. . فلم أدرسْ. إنّني رجلٌ مسكين وهذا ما يُخطىء النّاسُ في عدمِ رُؤيته. إنّني لم أسرقْ بَلِ التقطتُ عن الأرضِ أشياءً كانتْ مُلقاةً عليها. أنتم تقولون إنّني جان فالجان وأنا لا أعرفُ ذلك الشخص. لقد عملتُ عند السيد بالوب في جادّة المستشفى. لقد كنتُ في فافرول، هذا صحيحٌ ولكنْ ألاَ يمكنُ أنْ يكونَ المرءُ في فافرول دون أنْ يكون قد سُجن؟ أنا أقولُ لكم إنّني لم أسرقْ وإنّني الأب شامباتيو، وكلّ ما تبقّى هو في النّهاية حماقات. لماذا أنتم كلّكم ضدّي؟»

في هذه الأثناء بقيَ المدّعي العام واقفاً فوجّه الكلامَ إلى الرّئيس قائلاً: «سيدي الرئيس، إنّنا نطلبُ أنْ يُستدعى ثانيةً

المحكومون بريفيه وكوشباي وشينيلدير وبانتظار ذلك فسأكتفي بالتّذكير بما قاله هنا السيد جافير: «إنّني أعرفُ هذا الرجل جيداً، فهو لا يُدعى شامباتيو. إنّه سجينٌ قديمٌ سرق منذ ذلك الحين. لقد أمضى تسعةَ عشرَ عاماً في الأشغالِ الشّاقّةِ بسببِ السّرقة. إنّني أُكرر: إنّني أتعرّفُ عليه.»

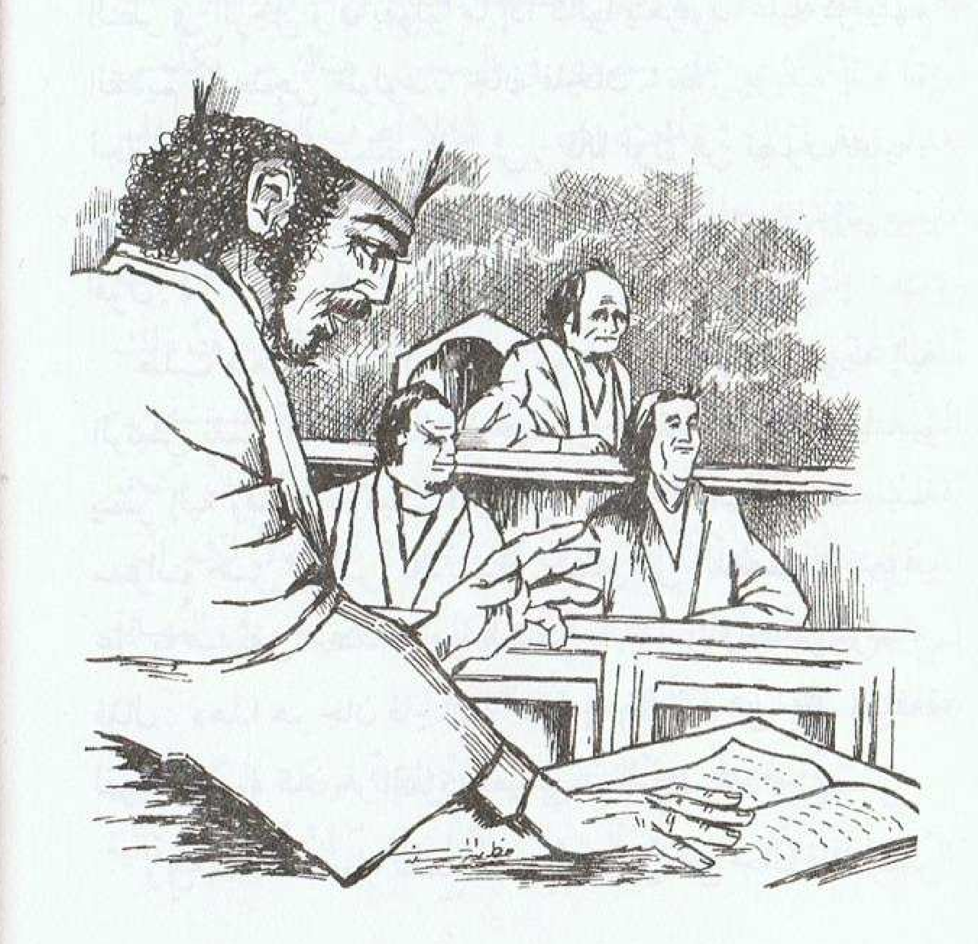
أُعيدَ استدعاءُ المحكومين الثلاثة وطُلبَ منهم أنْ يُمعنوا النّظر في الرّجل وأنْ يقولوا ما إذا كانوا يتعرّفون عليه كزميلهم القديم في سجن طولون، جان فالجان. نظرَ بريفيه إليه ثم أجابَ: «نعم يا سيدي الرّئيس. فأنا أوّلُ مَنْ تعرّف عليه. هذا الرّجلُ هو جان فالجان. إنّني أتعرّف عليه وأنا واثقٌ ممّا أقول.»

طلبَ منه الرّئيس أنْ يجلس ثمّ أُدخل شانيلديو فوجّه إليه الرّئيس نفسَ الكلام الذي وجّهه إلى بريفيه. أخذَ شانيلديو ينظرُ إليه وقال: «وكيفَ لا أتعرّفُ عليه؟ لقد قُيّدنا طيلةَ سنواتٍ خمس بنفسِ السّلسلة. ليسَ من اللّطف ألاّ تتعرّف عليّ يا صديقي. عندها أمره الرّئيسُ بالجلوس وأُحضرَ كوشباي فقال: «هذا هو جان فالجان. حتى إنّه كان يُدعى جان الرافعة لفرط قُوّته.» كان من المؤكّد حينئذٍ أنَّ الرّجل قد ضاعَ.

وفي هذه اللّحظةِ سُمعَ صوتٌ ينطلقُ من جانب الرّئيس

صائحاً «بريفيه، شانيلديو، كوشباي. أُنظروا إلى هذه الجهة» فجمد كُلُّ من سمعوه لنبرته الحزينةِ الأَخّاذة.

نهضَ رجلٌ وراءَ الرئيس ووقفَ في وسط القاعة، فعرف فيه الرّئيس والمُدعي العام والسيد باماتابو وعشرون شخصاً آخرون عُمدةَ مونترای سيرمار. وصاحوا بصوتٍ واحد: «السيد مادلين!»



شامباتيو يَزدادُ تعَجّبًا

إنّه هو بنفسه، فالمصباحُ ينيرُ وجهَه وقد أمسكَ قُبعتَه بيده، دون أيّ أثرٍ للفوضى في ملابسه. التفتتْ كُلّ الرّؤوس باتّجاهه؛ لكنّ الصّوتَ كان شديدَ الإلحاح والرّجلَ شديدَ الهدوء لدرجةٍ لم يُدرك معها النّاسُ لأوّل وهلةٍ مَن الذي أطلقَ تلك الصّيحة.

لم يُتح للرّئيس وللمدّعي العام أنْ يلفظا كلمةً واحدة، ولم يتسنّ لرجال الدّرك أنْ يأتوا بأيّة حركة. تقدّم الرّجلُ الذي كان الجميعُ لا يزالون يدعونهُ السيد مادلين نحو المحكومين الثلاثة وسألهم: «ألا تتعرّفون علي؟»

صمتَ الثلاثةُ وأجابوا بإشارة نفيٍ برؤوسهم ارفقها كوشباي بتحيّة.

التفت مادلين عندئذٍ إلى الرئيس وقال بصوتٍ هادىء: «سيدي الرئيس، أطلقوا سراحَ شامباتيو واعتقلوني أنا. إنّ

الرَّجلَ الذي تبحثون عنه ليس هو بل أنا. إنّني جان فالجان.

خيَّم مُجدّداً صمتٌ ثقيلٌ على القاعةِ وشعرَ مَنْ فيها بذلك النّوعِ من الخوفِ الذي يُصيبُ النّاسَ عند حدوثِ أمرٍ عظيم.

انحنى الرّئيسُ ذو الوجه الحزين والطيّب نحو المدّعي العام وأسرّ إليه ببضعِ كلماتٍ ثم سألَ بصوتٍ هادئٍ فهمه الجميع: «هل يُوجدُ طبيبٌ في هذه القاعة؟»

ثم تكلّم المدّعي العام قائلاً: «أيها السادة، أنتم تعرفون جميعاً، ولو بالاسم، السيد مادلين، عمدةَ مونتراي سيرمار. فإذا كان بينكم طبيب؛ فإنّنا نطلبُ منه معَ السيد الرئيس أنْ يتفضّلَ بمُرافقةِ السيد مادلين إلى منزله»

لم يدعِ السيد مادلين المدّعي العام يُنهي كلامَه وقال: «أشكركَ يا سيدي المدّعي العام، لكنّي لستُ مجنوناً وسترى. كُنتمْ على وشكٍ أنْ تخطئوا. اتركوا هذا الرّجل يذهب فأنا هو جان فالجان ذلك المحكوم البائس. إنّني أقولُ الحقيقة وتستطيعونَ توقيفي فها أنذا. لقدِ انتحلتُ إسماً كاذباً وأصبحتُ غنياً وعمدةً، فأردتُ الإختلاطَ بالنّاسِ الطيبين، **لكنْ يظهرُ أنّ هذا ليس بالأمر السّهل. لقد سرقتُ سيدنا الأسقف، هذا صحيح، وسرقتُ طفلاً، وهذا صحيحٌ أيضاً.**

لم يعدْ لديّ ما أُضيفه، فأوقفوني. يا آلهي! إنّكَ لا تُصدّقني يا سيد المدّعي العام، هذا أمرٌ محزن، لا تُدنْ هذا الرّجل على الأقل. ماذا؟ ألا يتعرّفُ عليَّ هؤلاء؟ بودّي لو كان جافير هنا إذن لتعرّف علي.»

كانتْ كلماتُ السيد مادلين حزينةً بشكلٍ لا يُوصف. التفتَ نحو السّجناء الثلاثة قائلاً، «حسناً، إنّني أتعرّف عليكَ يا بريفيه فهل تذكُر..؟» توقّف لحظةً ثم أردفَ: «أتذكرُ ذلك البنطالَ البنيّ والأصفر الذي كان لديْك سنة ١٧٩٨؟ أنا لم أرَ له مثيلاً أبداً.»

نظرَ إليه بريفيه كما لو كان خائفاً، أمّا هو فتابع كلامَه: «إنّ كتفك الأيمن بأكمله يا شانيلديو محروقٌ حرقاً عميقاً، فلقد أردتَ أنْ تمحوَ الأحرفَ الثلاثة «أ. ش. م» التي بقيتْ رغم ذلك ظاهرة. أَجِبْ، هل هذا صحيح؟»

ـ إنّه صحيح.

ـ لقد كتبتَ يا كوشباي على ذراعك الأيسر بأحرفٍ زرقاء: «أوّل آذار ١٨١٥»، فارفع كمّ قميصك.

رفعَ كوشباي قميصهَ فانحنى الجميعُ وأحضرَ دركيٌّ قنديلاً فقُرئتْ عبارة: «آذار ١٨١٥».

نظرَ الرّجلُ البائسُ إلى القُضاة بابتسامةٍ هي مزيجٌ من الفرح واليأس قائلاً:

ـ أنتم ترون أنّني جان فالجان.

لم يعدْ في تلكَ القاعةِ قضاةٌ أو رجالُ درك ولم يعدْ يذكر ما ينبغي عليه فعله. فنَسِي الرّئيس أنْ يرأس، والمدافعُ أنَّهُ هناك للدّفاع. وممّا يلفتُ النّظرَ أنّه لم يُطرح أيّ سؤال. كان من المؤكدّ أنّ جان فالجان هو الماثلُ للعيان، فقد فهم الجميعُ فوراً تلك القصّة النّبيلة والبسيطة لرجلٍ يحلّ محلَّ آخر كي لا يُحكم على هذا الأخير ظلماً.

عادَ جان فالجان إلى الكلامِ فقال: «لن أزعجكم وقتاً أطول، فأنا ذاهب إذا لم أُعتقل. لديّ أشياء كثيرة أفعلُها. إنّ سيدي المدّعي العام يعرفُ مَنْ أنا وإلى أينَ أذهبْ وسيوقفُني عندما يشاء.»

سارَ مادلين باتّجاه الباب فلم يسمع أيّ صوتٍ ولم تجر أيّة مُحاولةٍ لمنعِهِ من الخروج. اجتازَ القاعة بخُطى وئيدة. ولم يُعرف أبداً من فتحَ له البابَ، لكن من المؤكدّ أنّه كان مفتوحاً عندما بلغه. وهناك استدارَ قائلاً: «أنتم كلّكم، جميع الموجودين هنا، تُشفقون عليَّ، أليسَ كذلك؟ يا آلهي! عندما

أفكّر بما كنتُ على وشكِ أنْ أفعلَه بحقّ هذا البريء، أجدُ أنّه بوسعكم أنْ تغبطوني.»

خرجَ فأُغلقَ البابُ خلفَه كما فُتحَ لأنّ من يقومون بالأعمالِ العظيمةِ يثقون دوماً بأنّ أحدَ الأفراد سيخدمُهم.

وبعدَ أقلّ من ساعةٍ أُطلقَ سراحُ المدعو شامباتيو، فخرجَ دون أنْ يفهم شيئاً ممّا جرى مُعتقداً أنّ كلَّ النّاسِ مجانين.

* * *

السَّيِّد مادلين يتأمّل شَعْرَه

طلع النّهارُ بعد أنْ أمضتْ فانتين ليلاً محموماً مليئاً بالصّور السّعيدة. وفي الصّباح نامتْ. كانت الرّاهبة التي قضتِ اللّيل بجوار سريرها في المستوصف عندما التفتتْ وأطلقتْ صيحة خفيفة. كان مادلين أمامَها وقد دخل بصمتٍ فصاحتْ: «هذا أنت يا سيدي العمدة؟»

أجاب بصوتٍ خافت: «كيف حالُ هذه المرأةِ المسكينة؟»

ـ لا بأسَ عليها في هذه اللّحظة، لكنّ حالها كانتْ جدّ سيّئة أمس. ثم شرحتْ له ما حدثَ وأنّ حالَ فانتين قد تحسّنتْ الآن لاعتقادها أنّ السيد العمدة ذهب لإحضار ابنتِها من مونغارماي. ولم تجرُؤ الرّاهبة أنْ تطرحَ سؤالاً على العمدة لكنّها رأتْ من منظره أنه لم يأتِ من هناك.

بزغَ النّهارُ في الغرفةِ وأضاءَ مُواجهةً وجهَ السيد مادلين.

رفعتِ الرّاهبةُ عينيْها وصاحتْ: «يا إلهي! ما الذي حدثَ لك إذن يا سيدي؟ لقد أصبحَ شعرُك كلّه أبيض! ـ أبيض؟!» قالها كمن يفكّر في أمرٍ آخر كما لم يكنِ الامر هاماً ثم سأل:

ـ أأستطيعُ أنْ أراها؟

ـ ألنْ يُعيدَ لها سيدي العمدة طفلتَها؟

ـ دون شك، لكنْ يلزمني على الأقلّ يومان أو ثلاثة.

دخلَ السيد مادلين فلم تأت فانتين بحركةٍ تنمُّ عن التعجّب أو الفرح، بل كانتْ هي الفرحُ نفسُه، وطرحتْ هذا السّؤالَ البسيط: «وكوزيت؟» بشكلٍ طبيعي، دون أيّ شك، ثم تابعتْ: «كنتُ أعرفُ أنك هنا. كنتُ نائمةً ولكنّي كنتُ أراك، فأنا أراك منذُ وقتٍ طويل. لقد تبعتُك طولَ اللّيل. لكنْ قُلْ لي: أينَ كوزيت لمَ لَمْ تضعوها قُربي على السرير؟»

جلسَ مادلين على كرسي بجانبِ السّرير، فالتفتتْ إليه مُجهدةً نفسَها كي تبدو مُطمئنة، لكنّها لم تستطعْ، رغمَ ذلك، أنْ تمنعَ نفسَها من طرحِ ألفِ سؤال. أخذَ يدَها وقال: «إنّ كوزيت جميلةٌ وبصحّةٍ جيّدة وسترينَها قريباً فاطمئنّي. إنّك تتكلّمين كثيراً وبسرعة، وتُخرجين ذراعيْك من السّرير ممّا

يجعلُكِ تسعلين. . » شرعتْ تعدُّ على أصابعها: واحد، إثنان، ثلاث، أربع. . عمرُها سبعُ سنوات، وقريباً ستبدو كامرأةٍ صغيرة، ثمّ أخذتْ تضحك.

أصغى السيد مادلين إلى تلكَ الكلمات وتلكَ الضّحكة كما يصغي المرءُ إلى مرورِ الرّيح، وعيناهُ إلى الأرض. وفجأةً توقّفتْ فانتين عن الكلام ممّا جعله يرفعُ رأسَه: كان منظرُ وجهِها مُخيفاً، إذْ لم تعدْ تتكلّم أو تتنفّس بل نهضتْ قليلاً فخرجَ كتفُها النّاحل من قميصها وبدتْ وكأنّها تنظرُ إلى شيءٍ مُرعبٍ أمامَها في الجهةِ الأُخرى من الغرفة. صاحَ مادلين: «يا آلهي! ما بك يا فانتين؟!» فلم تُجب ولم تفارق عيناها ما كان يُظهر أنّها تراه. لامستْ ذراعه بيدٍ وأشارتْ له بالأُخرى أنْ ينظرَ وراءَه.

وهنا رأتْ فانتين منظراً مُرعباً لم تكنْ تتوقّعه أبداً حتى في أقوى نوبات الحمّى: رأتْ جافير يُمسكُ السّيد العمدةَ من ياقةِ سُترته قُربَ عُنقه، فيُخفضُ الأخيرُ رأسَه. خُيِّلَ إليها أنّ السّماء ستقعُ فصاحتْ: «سيدي العمدة!» ضحكَ جافير تلكَ الضّحكة التي تُظهرُ أسنانَه وقال: «لم يعدْ هنا من عمدة!» لم

يُحاولْ جان فالجان مُقاومةَ اليدِ المُمسكةِ بسُترتِهِ بل قال:

ـ جافير. .

فقاطعه جافير بحدّة!

ـ نادني سيدي.

ـ سيدي، إنّني أُريدُ أنْ أتحدّث إليك على انفراد.

ـ بصوتٍ مرتفع! تكلّمْ بصوتٍ مُرتفع. إنّ النّاس يكلّمونني بصوتٍ مُرتفع!

تابعَ جان فالجان خافضاً صوتَه:

ـ لديَّ رجاءٌ إليك. .

ـ إنّني أطلبُ منكَ أنْ تتكلّمَ بصوتٍ مُرتفع.

ـ لكنّ هذا لا يجبُ أنْ يسمعه غيرُك.

ـ ما يهمُّني من ذلك؟ إنّني لا أصغي.

قال له جان فالجان بسرعةٍ وبصوتٍ خفيضٍ جداً:

ـ أعطني مُهلةَ ثلاثةِ أيام كي أذهبَ لإحضارِ طفلةِ هذه المرأة البائسة. سأدفعُ ما يلزم، وتعالَ معي إذا شئت.

ـ إنك تريدُ أنْ تمزح. فلم أكنْ أعتقدُ أنّـك غبيٌّ لهـذه الدّرجة. إنّك تطلبُ منّي ثلاثـةَ أيام للهربِ وتَدَّعي أنها لإحضارِ طِفلةِ هذه المرأة! آه، آه، هذا حسنٌ!

صاحتْ فانتين:

ـ طفلتي! تذهبُ لإحضارِ طفلتي! إنها ليستْ هنا إذن. أجيبيني أيّتها الأخت. أينَ ابنتي كوزيت؟ أُريدُ طفلتي. ويا سيد مادلين! يا سيدي العمدة!

ضربَ جافير الأرضَ بقدمِه قائلاً:

ـ هاكِ الأُخرى الآن! هل ستسكُتين؟ لقد قلتُ لكِ إنّه ليس هناك من سيد مادلين أو عمدة. هناكَ سارقٌ يُدعى جان فالجان وهو مَنْ أُمسكُ به، هذا كلُّ ما في الأمر.

نهضتْ فانتين مُعتمدةً على ذراعيْها ويديْها ونظرتْ إلى جان فالجان ثم إلى الرّاهبة وفتحتْ فمهَا كمنْ تُريدُ الكلام، فخرجتْ صرخةٌ مكتومةٌ من أعماقِ صدرِها ومدّتْ ذراعيْها وفتحتْ ثمّ أغلقتْ يديْها باحثةً حولَها، ثمّ سقطتْ على الوسادة. اصطدم رأسُها بحديدِ السّرير فهوى على صدرها.

نظرَ جان فالجان إلى وجهِها فوجدَها فاغرةَ الفم، جَاحِظَةَ العينينْ. لقد ماتتْ.

وضع جان فالجان يدَه على يدِ جافير المُمسكةِ به وفتحَها كما يَفتحُ يدَ طفلٍ ثم قال له:

ـ لقد قتلتَ هذه المرأة!

فصاحَ جافير:

ـ هل سننتهي؟ لستُ هنا كَيْ أُصغيَ إليك فرجالُ الدّرك في الأسفل. سرْ فوراً وإلاّ قيّدْتُ يديْك.

كان في إحدى زوايا الغرفةِ سريرٌ حديديٌّ قديمٌ تستعملُه الرّاهبة المُناوبةُ في اللّيلِ عندما تسهرُ على المرضى. اقتربَ جان فالجان من السّرير وانتزعَ أحدِ قوائمه، وهو أمرٌ سهلٌ لمن مثلِ قُوّته ثم نظرَ إلى جافير فتراجعَ باتّجاه الباب.

تقدّم جان فالجان ببطءٍ وقطعةُ الحديدِ بيدِه من سريرِ فانتين. وعندما بلغهُ استدارَ وقال لجافير بصوتٍ يكاد ألاّ يُسمع: «أنصحُكَ بعدمِ إزعاجي في هذه اللّحظة.» ثمّ وضعَ يديْه على السّريرِ ونظرَ إلى فانتين. بقيَ هكذا ساكناً دون أنْ يُفكِّرَ

بشيءٍ في هذه الحياة. وبعد لحظاتٍ من هذا التأمُّل، انحنى فوقَ فانتين وكلَّمهَا بصوتٍ مُنخفض. فما الذي قالَه لها؟ ما الذي يستطيعُ أنْ يقولَه رجلٌ نَبَذَهُ المجتمعُ لتلكَ المرأةِ الميّتة؟ أخذَ رأسَ فانتين بيديْه ووضعه برفقٍ على الوسادة كما تفعلُ أُمٌّ بولدِها. ثم عقدَ خيطَ قميصِها ورتّب شعرهَا. وبعد أنْ فعلَ ذلك أغمضَ لها عينيْها فبدا وجهُهَا مُنيراً بشكلٍ غريب. إنّ الموتَ هو الدّخولُ إلى النّورِ الأكبر.

كانتْ يدُ الميّتة تتدلّى خارجَ السّرير، فركعَ جان فالجان أمامَ تلك اليد ولثّمها ثمّ نهضَ والتفتَ إلى جافير قائلاً:

ــ إنّني الآن بتصرُّفِكَ.

تابِعْ أحداثَ هذه القصّة المؤثرة

في الجزء الثاني
«كوزيت»

قصص
عالمية

